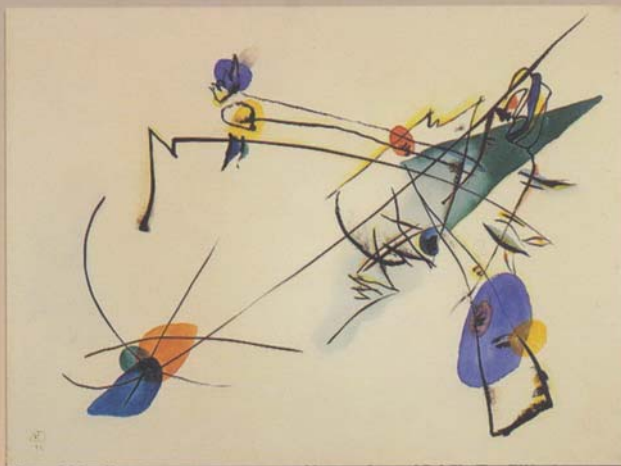




31.7.2015

سيمون دوبوفوار

سوء تفاهم في موسكو



ترجمة: لينا بدر



سيهون دوبوفوار

كلمة الناشر الفرنسي

سوء تفاهم في

موسكو

كتب سيهون دوبوفوار "سوء تفاهم في
موسكو" ما بين 1966-1967، وكان من
المنشور أن تشكل جزءاً من مجموعة "المرأة
المضطربة" 18 ترجمة: ليلى بدر من مزيانها
الواضحة إلا أن الكهنة استبعدتها لتبديلتها بقصة
"بين الرشد"، وقد نشرت (سوء تفاهم في موسكو)
للمرة الأولى في العام 1992، في مجلة
"Roman 20-50"

دار الحوار

سوء تفاهم في موسكو

الكتاب: سوء تفاهم في موسكو
المؤلف: سيمون ديووفوار
المترجم: لينا بدر
الطبعة الأولى: 2015/3
الإخراج الضوئي: بتول سامر ديبه

حقوق الطبعة العربية محفوظة © دار الحوار للنشر والتوزيع.

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للكتاب الفرنسي:

Malentendu à Moscou

By: **Simone de Beauvoir**

© Editions de L'Herne, 2013

Published by arrangement with Agence Illetterale Pierre Astier & Associés

ALL RIGHTS RESERVED



ISBN: 978 - 9933 - 523 - 20 -6



تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص.ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس: +963 41 422 33
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com



كلمة الناشر الفرنسي

كتب سيمون دوبوفوار "سوء تفاهم في موسكو" ما بين 1966-1967، وكان من المفترض أن تشكل جزءاً من مجموعة "المرأة المحطمة" 1968. وعلى الرغم من مزاياها الواضحة إلا أن الكاتبة استبعدتها لتستبدلها بقصة "سن الرشد". وقد نشرت (سوء تفاهم في موسكو) للمرة الأولى في العام 1992، في مجلة "Roman 20-50"

تروي القصة أزمة الزوجية والهوية التي يعيشها زوجان (أندريه ونيكول) على أعتاب الشيخوخة، - وهما أستاذان متقاعدان - أثناء رحلة في موسكو. ثمة يلتقيان بماشا، ابنة أندريه من زواجه الأول. وقد جاء أسلوب السرد الذي اختارته الكاتبة موائماً بشكل ممتاز للموضوع الذي تمت معالجته. حيث تعرض سيمون دو بوفوار، ضمن مشاهد متعاقبة (أربعة وعشرون بمجملها، موزعة بالتساوي) وبإيقاع سريع، وجهة نظر كل من نيكول وأندريه. ويشغل إذ ذاك القارئ هنا موقع المحظي للوقوف على مسافة واحدة من الشريكين، حيث يتعلق كل منهما للحظات في تأويلاته المغلوطة وخيالاته التي لم يبح بها، وأضغانه المتباينة. وتتيح لها هذه التقنية، إضافة إلى ذلك، وبشكل متواز، توضيح وجهة النظر الذكورية، وكذلك الأنثوية، في اختلافاتهما (اهتمامات أندريه سياسية أكثر، أما اهتمامات نيكول فتتمحور حول الشاعر)، كما في تشابهما. وكانت الكاتبة قد استخدمت هذا التبني المضاعف في روايات سابقة (دم الآخرين، وموظفو الصين الشعبية)، ولكن لم تكن ولا مرة بهذه الحدة وهذه التكاملية.

كما يشير العنوان، تربط الرواية وبشدة ما بين القصة الفردية والتاريخ الجمعي، حيث يبدأ سوء التفاهم الزوجي بمناسبة رحلة تقود إلى خيبة سياسية. وبهذا تقدم شهادة (نقدية) في غاية الإثارة عن الاتحاد السوفييتي وسط سنوات الستينيات (من أقرن العشرين). تستوحي سيمون دو بوفوار هذه القصة من إقامتها المنتظمة في الاتحاد السوفييتي هي وجان بول سارتر المدعوان من قبل اتحاد الكتاب ما بين عامي 1962-1966 (كان يلتقي بها سارتر هناك بصديقتة الروسية لينا زونينا التي تستعير ماشا بعض ملامحها). هكذا، ومن خلال التجربة الواقعية لأبطال القصة نوي المشاعر المتوفرة نقيس تحولات البلاد، ونعيش الآثار العديدة التي تسببها السخافة البيروقراطية. إن الوضع الثقافي للاتحاد السوفييتي والسياسة الخارجية التي كانت يسيطر عليها آنذاك الضغط الصيني السوفييتي، يثيران نقاشات ما بين ماشا ووالدها، الخائب في النهاية من عدم العثور على اشتراكية مثالية في موسكو التي يعيد اكتشافها. إن نقد النظام السوفييتي الذي أثارته الكاتبة في عملها (في النهاية، بعد كل اعتبار)، والذي كتبه في العام 1971 بعد اجتياح تشيكوسلوفاكيا، كان

أكثر حدة، وقد كرّس حيزاً أكبر لمشكلة الحريات. ولكن تبقى بما هي عليه هذه اللوحة المفصّلة عن الواقع في الاتحاد السوفييتي وثيقة قيمة.

متجاوزة أزمة الزوجين، تتناول سيمون دو بوفوار موضوعات أكثر عمومية، إذ تعرض الشخصيات النسائية مظاهر مختلفة لوضع النساء: نيكول، على الرغم من رغبتها بالتححرر ومن معارك شبابها، وهي منهكة من حياتها العائلية، وتأسف لعدم إنجاز طموحاتها. كما تجسد إيرين خطيبة الابن الجيل الجديد الذي يدّعي التوفيق بين كل الأشياء ولا يتعمق بشيء. وينساب من ماشا الشعور بالراحة والاستقلالية بسبب المساواة بين الجنسين في الإتحاد السوفييتي. إن مشكلة التواصل إلى الآخر تسري على طول القصة، ومع ذلك هي تستقصي الآثار المريرة للتقدم في السن: وهن الجسم، التوقف عن الحياة الجنسية، التخلي عن المشاريع، ضياع الآمال. ويقود إمعان التفكير في السن إلى التساؤل حول الزمن (إشارة إلى مارسيل بروست). ويضفي اضطراب الشخصيات غالباً على كل هذه التأمّلات طابعاً

شعرياً مؤثراً بشكل خاص. والمغالاة في (سوء التفاهم) تؤدي إلى الغوص أكثر فأكثر في الماضي والبلوغ في النهاية إلى سؤال عن المعنى نفسه للحياة الإنسانية: "صعقها القلق، القلق من الوجود، والذي لا يمكن التغاضي عنه، أكثر بكثير من الخوف من الموت." وتتداخل كل هذه الإشكاليات وهذه الموضوعات بشكل متلاحم وضروري. وتقف ماشا الدليلة السياحي والمترجمة والتي أحدث حضورها أزمة ووعياً، في وسط هذه اللوحة.

في قصة "سن الرشد" التي حلت محل "سوء تفاهم في موسكو"، في مجموعة (المرأة المحطمة) تستعيد سيمون دو بوفوار وضع الزوجين المتقدمين في السن اللذين يواجهان سوء تفاهم، فتكرر مقاطع عدة من القصة الأولى متبينة إياها في النص. لكنها تستبعد منها كل البعد السوفييتي، وتتبنى هذه المرة وبشكل حصري وجهة نظر الشخصية النسائية المتأزمة. هذه الخيارات سمحت لها بإدراج القصة الجديدة بسهولة أكبر ضمن مجموعة

"المرأة المحطمة". ولكن بالعودة إلى الوراء،
فإن روعة "سوء تفاهم في موسكو" تفرض
نفسها وتدعو لنشرها كنص مستقل.

سوء تفاهم في موسكو

رفعت بصرها عن كتابها. يا للضجر! كل هذه اللزمات المملة عن عدم التواصل! لو أننا نتمسك بالتواصل فسنفلح بذلك إلى حد ما. ليس مع كل الناس، ليكن، مع شخصين أو ثلاثة.

كان أندريه الجالس في المقعد المجاور يقرأ كتاباً ممنوعاً. كانت تخفي عنه تقلبات مزاجها، حسراتها وهمومها الصغيرة، لاشك أنه هو أيضاً لديه أسرارها الصغيرة، لكن بالإجمال لم يكونا يجهلان شيئاً عن بعضهما البعض. ألقى نظرة

عبر نافذة الطائرة. على مد البصر، غابات سوداء
وبرار منيرة. كم مرة فرّا معاً، في القطار، في
الطائرة، في السفينة، يجلسان متحاذيين وكل
منهما بيده كتاب؟ مراراً أيضاً سوف يذهبان معاً،
بصمت، فوق البحر والبرّ والجوّ. كان لهذه
اللحظة عنوبة ذكرى وفرح ووعد. هل هما في
الثلاثين أم في الستين؟ لقد شابَ شعر أندريه
مبكراً: في الماضي كان يبدو هذا الثلج الذي يعلو
نضارة بشرته النضرة جذاباً للنساء. ما يزال
جذاباً. قست البشرة وتشققت، جلد مسن، لكن
ابتسامة الثغر والعينين احتفظت بضيائها. على
الرغم من تكذيب ألبوم الصور، لكن صورته
الفتية كانت تنطوي تحت وجهه اليوم. لم تكن
نيكول تعرف فيه عمراً. لأنه يبدو، بلا ريب،
جاهلاً بأنه تقدم به العمر. هو الذي كان يحب جداً
في الماضي أن يركض ويسبح ويتسلق ويتطلع
إلى نفسه في المرايا، كان يحمل سنواته الستين
دون هم. حياة طويلة مع الضحكات والدموع
والغضب والعناقات والبوح والصمت

والاندفاعات، كأن الزمن لم يمر. ما يزال المستقبل ممتداً إلى اللانهاية.

- شكراً.

أخذت نيكول قطعة سكاكر من السلة، فزعة من بدانة المضيفة ونظراتها القاسية. منذ ثلاث سنوات، فزعت من نادلات المطاعم وخادمات غرف الفنادق. لايفرض عليهن اللطف. شعور عارم بواجبهن لايمكن إلا استحسانه. ولكن يشعر المرء حيالهن بالذنب أو بالاتهام على أقل تقدير.

- وصلنا، قالت.

بخوف متحفظ، كانت تنظر إلى الأرض التي تقترب. مستقبل لانهاية قد يتحطم بين لحظة وأخرى. كانت تعرف جيداً هذه الانفعالات المفاجئة، من الأمان الخالي من الهموم إلى اندفاعات الخوف. اندلاع الحرب الثالثة، إصابة أندريه بسرطان الرئة - علبتا سجائر في النهار، هذا كثير، كثير جداً، أو أن تتحطم الطائرة على

الأرض. ستكون طريقة جيدة للموت: معاً ودون قصص، ولكن ليس مبكراً جداً، ليس الآن. "نجونا، مرة أخرى"، قالت لنفسها حين ارتطمت العجلات بعنف قليلاً بالمدراج. ارتدى المسافرون معاطفهم، جمعوا صررهم. مراوحة الانتظار. مراوحة طويلة.

- هل تشمين رائحة أشجار البتولة؟

قال أندريه.

كان الطقس منعشاً، بارداً تقريباً. ست عشرة درجة كما أعلنت المضيفة. كم كانت باريس قريبة وبعيدة، على بعد ثلاث ساعات ونصف، باريس التي تنبعث منها هذا الصباح رائحة الإسفلت والعاصفة، تسحقها بشدة حرارة الصيف الأولى. كم كان فيليب قريباً وبعيداً... أفلتتهم حافلة - عبر مطار أكبر بكثير من ذلك الذي نزلوا فيه في العام 1963- إلى مبنى زجاجي فطري الشكل يدققون فيه جوازات السفر. عند المخرج، كانت ماشا بانتظارهما. دهشت من جديد من رؤية وجهها الذي تتجانس فيه بانسجام ملامح كليبر

وأندريه المتغايرة. نحيلة، أنيقة، تسريحتها بالشعر
المستعار فقط كانت تدل على موسكوفيتها.

- هل كانت الرحلة جيدة؟ هل أنتما على
ما يرام؟ هل أنت بخير؟

كانت تخاطب والدها بالضمير المفرد
ونيكول بضمير الجمع. بدا ذلك طبيعياً وفي
الوقت ذاته غريباً.

- أعطني هذه الحقيبة.

كان ذلك طبيعياً أيضاً. عندما يقوم رجل بحمل
حقائبك، ذلك لأنك سيدة، أما أن تقوم سيدة بهذا، فذلك
لأنها أصغر منك سناً، وأنت تشعرين بأنك عجوز.

- أعطيني بطاقات الحقائب واجلسا هناك.

قالت ماشا بلهجة أمرة. أطاعت نيكول.
مسنة. بالقرب من أندريه كانت تنسى ذلك غالباً،
لكن ألف خدش كان أتياً إليها ليذكرها. "امرأة
شابة جميلة"، ففكرت وهي ترى ماشا. تذكرت
كيف ابتسمت وهي في الثلاثين من عمرها حين

قال حموها الكلمات نفسها عن امرأة في الأربعين. بالنسبة إليها الآن، كان يبدو معظم الناس يافعين. مسنة، كان يصعب عليها التسليم بذلك (أحد الأشياء النادرة التي لم تبح بها لأندرية: ذلك الخبل اليأس). "مع ذلك، هناك مزايا"، قالت لنفسها. التقاعد يوحي بأنك (على حده) إلى حد ما، ولكن من الممتع أن تأخذ إجازتك متى أردت، بتحديد أكبر، أن تكون في إجازة طوال الوقت. في قاعات الدرس الحارة، كان زملاؤها قد بدؤوا الحلم بالرحيل وهي قد رحلت. بحثت عيناها عن أندريه الواقف إلى جانب ماشا وسط هذا الزحام. في باريس كان يستسلم لاحتكار كثير من الناس له. معتقلون سياسيون إسبانيون، موقوفون برتغاليون، إسرائيليون مضطهدون، متمردون كونغوليون، كامبرونيون، رجال مقاومة من الحرب العالمية الثانية، فنزويليون، بيروفيون، كولومبيون، ونسيت سواهم لقد كان مستعداً على الدوام لمؤازرتهم على قدر استطاعته. اجتماعات، مظاهرات، لقاءات، مناشير، مفوضيات. كان يقبل كل المهام. كان منتمياً إلى العديد من التجمعات

والهيئات. هنا، لا أحد سيلتمس منه شيئاً. لا يعرفان سوى ماشا. لاشيء يفعلانه هنا سوى رؤية الأشياء معاً. كانت تحب اكتشاف بعض الأشياء معه، وأن يستعيد الزمنُ الساكنُ من جرّاء رتابة سعادتهما الطويلة تجده المتدفق. نهضت. أرادت أن تكون منذ الآن في الشوارع تحت جدران الكرملن. كانت قد نسيت كم يمكن أن يطول الانتظار في هذه البلاد.

- هل وصلت هذه الحقائق؟

- سوف تصل في النهاية.

قال أندريه.

ثلاث ساعات ونصف، فُكّر. كم كانت موسكو قريبة، مع أنها بعيدة جداً! على بعد ثلاث ساعات ونصف، ولا أرى ماشا إلا نادراً جداً. (ولكن هناك عقبات كثيرة، أولها كلفة الرحلة).

- ثلاث سنوات مدة طويلة، قال، لا شك

أنك ترينني عجوزاً.

- بتاتاً، أنت لم تتغير.

- أنتِ ازددتِ جمالاً.

كان ينظر إليها بافتتان. عندما تظن أن لا شيء يمكن أن يحدث لك بعد الآن، وتكون قد أخذت نصيبك ولم يكن ذلك بالأمر السهل، هاهي عاطفة جديدة تماماً تنير حياتك. لم يعر اهتماماً كثيراً للفتاة المذعورة – كان اسمها آنذاك ماريانا- التي أحضرتها كليير لساعات قليلة من اليابان، من البرازيل، من موسكو. لقد ظلت غريبة بالنسبة إليه تلك المرأة الشابة القادمة إلى باريس بعد الحرب كي تعرّفه بزوجها. ولكن في الرحلة الثانية لماشا في العام 1960، حدث شيء ما بينهما. لم يفهم تماماً لماذا تعلقت به بشدة، لكن ذلك حرّك قلبه. بقي الحب الذي كانت تحمله له نيكول فطناً جياشاً، مرحاً، لكنهما كانا معتادين جداً أحدهما على الآخر، إلى درجة استطاع أندريه معها أن يحرك فيها هذا المرح الممزوج بالدهشة الذي يراه في تلك اللحظة يغيّر وجه ماشا القاسي إلى حد ما.

- هل وصلت هذه الحقائق؟

• سألت نيكول.

- سوف تصل في النهاية.

لماذا فقدان الصبر؟ هنا الوقت يوزع عليهما بوفرة. في باريس، كان يقتل أندريه مضي الساعات متنازلاً بين المواعيد، بالأخص بعد التقاعد. قلل من شأن امتداد أوقات فراغه، بدافع الفضول أو اللامبالاة، انساق إلى جملة التزامات لم يتمكن من التخلص منها. كان مزماً على الهروب منها لمدة شهر، كي يتمكن من العيش بذلك الاستهتار الذي يحبه جداً، يحبه كثيراً، فمنه تولدت كل متاعبه.

- ها هي حقايننا، قال.

وضعوها داخل سيارة ماشا وجلست هي وراء المقود. راحت تقود ببطء مثل كل الناس هنا. كانت تنبعث من الطريق رائحة الخضرة المنعشة، تتجرف فوق نهر موسكوفيا الآن تشكيلة من جنوع الأشجار. شعر أندريه بهذا الانفعال يستيقظ في داخله، والذي لولاه لما كان للحياة أي

طعم. ها قد بدأت مغامرة تثير حماسه وتخيفه،
مغامرة الاكتشاف. لم يكن يبالي قط لا بالنجاح
ولا بأن يكون شخصاً مرموقاً. (لولا تفاني أمه
بإصرار كي يتابع تعليمه، لاكتفى حقاً بمثل حال
والديه: مدرسان تحت شمس بروفانس). كان
يخال أن حقيقة حياته وذاته لا تنتمي إليه. كانت
متأثرة وعلى نحو غامض على الأرض كلها،
وكان يلزم لإدراكها مساءلة العصور والأماكن،
لهذا السبب كان يحب التاريخ والسفر. ولكن بما
أنه كان يدرس بصفاء الماضي المحرف في
الكتب، فإن مقاربة بلد مجهول – مقتحماً فوران
الحياة فيه ليعرف ما أمكنه عنه- كانت تشعره
بالدوار. كان هذا البلد يعنيه أكثر من أي بلد آخر.
كان قد نشأ على ثقافة لينين، أمه بسنّ الثالثة
والثمانين ولا تزال تناضل في صفوف الحزب
الشيوعي، هو لم ينتم إليه، ولكن من خلال
اضطراب المشاعر ما بين الأمل واليأس، ظن
دائماً أن الإتحاد السوفييتي يمتلك مفاتيح المستقبل،
وبالتالي مفاتيح هذا العصر، وله قدره الخاص.
مع ذلك، حتى في السنوات الستالينية السوداء، لم

يشعر أندريه قط بأنه أساء فهم الاتحاد السوفياتي. هل ستنوره إقامته هنا؟ في العام 1963 كانا قد سافرا كسيّاح إلى القرم وسوتشي، بشكل سطحي. هذه المرة، سوف يطرح الأسئلة، سيقراً الصحف، ويختلط بالجموع.

سلكت السيارة شارع غوركي. هاهم الناس، المخازن، هل سيفلح بالشعور بأنه في وطنه؟ ألقت به هذه الفكرة في الهلع. كان علي أن أدرس الروسية بجدية أكثر!¹ قال لنفسه. هذا أيضاً من الأشياء التي وعد نفسه بالقيام بها ولم يفعل. لم يتجاوز الدرس السادس من سلسلة الأسميل¹. نيكول على حق حين تنعته بالعجوز الكسول. للمطالعة والثروة والنزهة، كان دائماً على أهبة الاستعداد. لكن الأعمال الصعبة - تعلم المفردات، رفع البطاقات - كان يتأفف منها. لم يكن عليه إذاً أن يولي هذا العالم اهتمامه إلى هذه الدرجة، بجدية كبيرة وبكثير من الخفة. "هذا تناقضي" قال لنفسه بسرور. (أبهجه هذا التعبير من رفيق ماركسي إيطالي مقتنع، وكان يقمع زوجته). في الحقيقة، لم يكن يشعر بالسوء بتاتاً في قرارة نفسه.

¹ الأسميل: سلسلة كتب لتعلم اللغات. م.

محطة القطار، بلونها الأخضر الاستفزازي: (الأخضر الموسكوفي. "إذا كنت لا تحب هذا فمعناه أنك لا تحب موسكو." كان يقول أندريه قبل ثلاث سنوات). شارع غوركي. فندق بكين: كتلة مركبة متواضعة فيما لو قارناه بالمباني العملاقة والمفرطة الزخرفة المستوحاة على زعمهم من الكرملن، كانت قد أحاطت المدينة. كانت نيكول تتذكر كل شيء. ما إن خرجت من السيارة حتى تعرفت على رائحة موسكو، رائحة الوقود الأقوى بكثير مما كانت عليه في العام 1963، ذلك لأن السيارات دون شك أضحت أكثر بكثير. بالأخص الشاحنات والشاحنات الصغيرة. هل مضت ثلاث سنوات؟ قالت لنفسها وهي تدخل القاعة الكبيرة العارية. (كان يغطي بسطة بائعة الصحف شرشف ضارب إلى الرمادي، عند باب المطعم - ذي الطابع الصيني المبالغ به - كان الناس يقفون بالدور). بأية سرعة مضت؟ شيء محزن. كم سنة بقي لها لتعيش؟ لا شيء تغير هنا، بالنسبة للغرباء فقط. كانت ما شا قد أعلمتهما بأن أسعار الغرف التي

كانت منخفضة بشكل زهيد في الماضي، ازدادت
ثلاثة أضعاف. سلّمتهم مراقبة الطابق الثالث
مفتاحاً. أحسّت نيكول بنظرتها فوق عنقها على
طول الممر الطويل. هناك ستائر لنوافذ الغرفة.
كان ذلك حظاً جيداً. غالباً في الفنادق، تكون
النوافذ عارية. (عند ماشا لا يوجد ستائر حقيقية،
غلازة رقيقة فقط. تعتاد على ذلك، كانت تقول. لا بل
أن العتمة المطبقة كانت سوف تمنعها من النوم.)
كانت الجادة الكبرى في الأسفل قد تم إنجازها،
والسيارات تندفع داخل نفق تحت ساحة ماياكوسكي.
كان للحشد فوق الرصيف ألوان الصيف. تنتزه
النساء بأثواب مزهرة عارية الأزرع والسيقان. هذا
شهر حزيران، وهن يتخيلن أن الطقس حار.

- هذه الأشياء لكِ.

قالت نيكول لماشا عندما بدأت تفتح حقيبتها.
روايات جديدة، من سلسلة *des pléiadas* ،
بعض الأسطوانات، وكذلك سترات من الصوف
المحاك وقمصان. كانت ماشا تحب التزيين. جسّت
بفرح الصوف والحريير وراحت تقارن الألوان.

ذهبت نيكول إلى الحمام. ضربة حظ أخرى. كان
السنبوران ورشاش مياه المراض كلها تعمل.
غيرت ثوبها وأعدت زينة وجهها.

- يا له من ثوب جميل!

قالت ماشا.

- أحبه كثيراً.

في سن الخمسين كانت دائماً تبدو لها
زينتها إما كئيبة جداً أو مرحة جداً. الآن صارت
تعرف ما المسموح لها وما الممنوع. تلك العلاقة
الحميمة التي كانت في السابق بينها وبين ملابسها
لم يعد لها وجود. علقت بذلتها داخل الخزانة، تلك
البذلة التي ارتدتها لسنتين تبدو لها الآن شيئاً لا
معنى له، غير شخصي، لا تجد فيها أي شيء
منها. في هذه الأثناء كانت ماشا تبتسم في المرأة،
ليس للقميص الجميل الذي ارتدته لتوها، إنما
لصورتها المفاجئة والجميلة. نعم، أتذكر ذلك.
قالت نيكول لنفسها.

- حجزت طاولة في براغا.

كانت قد تذكرت أنه مطعم نيكول
المفضل. حسن، التفات شديد وذاكرة دقيقة جداً،
مثل ذاكرتي. كانت نيكول تتفهم العاطفة التي لدى
أندريه تجاهها. لشدة رغبته دائماً بآبنة، كان
يتحامل على فيليب قليلاً لأنه صبي.

خلال عشر دقائق، كانت ماشا تقودهما إلى
براغا. سلموا معاطفهم لمودع الألبسة، عرفت الإزمي.
يمنع الدخول إلى مطعم مع معطف على الظهر أو على
الساعد. جلسوا داخل قاعة طعام مبلطة، مليئة بأشجار
النخيل والنباتات الخضراء. كان يغطي أحد الجدران
منظر طبيعي عريض ضارب إلى اللون البنفسجي.

- كم كأساً من الفودكا؟ - سألت ماشا - أنا
التي أقود لن أشرب.

- اطلبني ثلاثمائة غرام إذاً، قال أندريه.

بحثت عيناه عن نظرة نيكول.

- لأول ليلة؟

- لأول ليلة، ليكن. قالت مبتسمة.

بالنسبة إلى الكحول كانت تفلح بجعله يخفف.

- لأول ليلة سأتخلى عن حميتي - قالت -
سأتناول الكافيار وحساء رقائق الطيور.

- هل تتبعين حمية؟

- نعم، منذ ستة أشهر، أزداد سمنة.

ربما كانت تأكل أكثر قبل أن تتقاعد، في كل الأحوال، كانت تجهد نفسها أقل. قال لها فيليب ذات يوم: "ولكن ماهذا، أنت تتكورين!" منذ ذلك الحين لم يلاحظ كثيراً أنها نحلت. وهذه السنة بالتحديد، كان حديث باريس: الاحتفاظ بالرشاقة واستعادتها: حريرات مخفضة، هيدروكربونات، أدوية عجائبية.

- قوامك جيد جداً، قالت ماشا.

- فقدت خمسة كيلو غرامات وأحرص على عدم استعادتها. أزن نفسي كل يوم.

لم تكن تتخيل في الماضي أنها ستنشغل قط بوزنها. وها هي كلما كانت تتعرف على جسدها أقل، يزداد شعورها بضرورة الاهتمام

به. كان جسدها مسؤوليتها. تعتني به بتفان متعب، مثل صديق قديم، مشوه بعض الشيء، معوّق قليلاً، لكنه بحاجة إليها.

- إذا فيليب سوف يتزوج - قالت ماشا- كيف هي خطيبته؟

- جميلة وذكية، قال أندريه.

- لا تعجبني إطلاقاً، قالت نيكول.

بدأت ماشا تضحك:

- كيف تقولين هذا! لم أجد قط كنة تعجب حماتها.

- إنها من نوع "المرأة الشاملة"- قالت

نيكول- ما أكثرهن في باريس! لديهن مهنة غير محددة، يدّعين الأناقة وممارسة الرياضة، والتماسك بشكل كامل، وتربية أولادهن بشكل رائع. يردن أن يثبتن لأنفسهن أنهن قادرات على النجاح على جميع المستويات. وفي الحقيقة، هن مشتتات، لا يصلن إلى شيء. هذا النوع من النساء يجمّد الدم في عروقي.

- أنت ظالمة قليلاً، قال أندريه.

- ربما.

من جديد سألت نفسها: لماذا إيرين؟ كنت أظن أنه حين سيتزوج...كنت أظن أنه لن يتزوج، وسيبقى الصبي الصغير الذي قال لي، مثل كل الصبيان: "عندما أكبر، سوف أتزوجك." وذات مساء قال: "سأعلمك بخبر!" بهيئة مستثارة قليلاً، مثل طفل أفرط في يوم العيد في اللعب والضحك والصرخ. ودق ذلك الناقوس داخل صدر نيكول. صعد الدم إلى وجنتيها، شددت كل عزماتها كي تمنع ارتجاف شفتيها. ذات مساء من شهر شباط، كانت الستائر مسدلة وضوء مصباح فوق قوس قزح الوسائد، وهذه الدوامة من الغياب التي انحفرت فجأة. "سوف يعيش مع أخرى، في مكان آخر." حسن، علي أن أخذ نصيبي من ذلك، قالت لنفسها.

كانت الفودكا مثلجة والكافيار بلون رمادي مخملي. ماشا تعجبها، سيكون لها أندريه طوال شهر. كانت تشعر بالسعادة الكاملة وهو أيضاً يجلس على كنبه بين سريرين، ماشا في جهة ونيكول في الأخرى. (في العام 1963، كان

يوري بمهمة تنقيب عن الآثار، واصطحب معه فاسيلي. كانت شقة ماشا خالية. هذه السنة، كي يقضي الأمسية معها بمفردهما، لم يكن هناك سوى غرفة الفندق هذه.)

- نظمت وقتي كي أكون حرة كل الشهر،
قالت ماشا.

كانت تعمل في دار لنشر المؤلفات الروسية الكلاسيكية باللغة الفرنسية في موسكو، وكذلك في مجلة مخصصة لدول غربية مختلفة. كانت تترجم نصوصاً معاصرة. لكنها كانت تقرأ أيضاً، تختار وتقترح.

- بإمكاننا الذهاب إلى فلاديمير² في نهاية الأسبوع - استأنفت - ثلاث ساعات بالسيارة.

كانت تتباحث مع نيكول: نوفغورود، بسكوف، روستوف الأكبر، لينينغراد. ترغب نيكول بالتحرك، فليكن، أن تأتي إلى روسيا كي تسعد أندريه، هذا كثير، يريد أن تعود عليه الرحلة بالمتعة. كان ينظر إليهما وقلبه مفعم بالحب. كانت

² فلاديمير: مدينة روسية تشكل جزءاً من مدن حلقة الذهب لروسيا القديمة تقع حول موسكو. م.

ماشاً لطيفة جداً مع نيكول، أكثر مما هي مع كليز، تلك الحمقاء الجميلة التي، لحسن الحظ، استعجلت أوراق الطلاق أكثر منه بكثير بعد تأكيد شرعية طفلاتهما. كان مسروراً لأنهما تتفاهمان على نحو ممتاز. هما أكثر شخصين يحبهما في العالم. (تجاه فيليب، لم يستطع قط تجاوز الشعور بشيء من الغيرة. كان في معظم الأحيان بالنسبة إليه وإلى نيكول طرفاً ثالثاً. كانت نيكول تهمة أكثر من ماشا. ولكن إلى جانب ماشا كان يحسّ بأنه لولاها لم يكن ليعرف قط شعوراً عاطفياً. المغامرات، لاشيء كان يمنعه من عيش المزيد منها. كانت نيكول قد صرّحت ذات يوم بأنها تجد نفسها مسنّة جداً لمتع السرير. هذا سخف، كان يحبها كما هي اليوم مثلما كان يحبها في الماضي.) أعطته حرّيته إذاً. في الواقع، كانت ماتزال قادرة جداً على إثارة نوبات الغيرة، ولم يكن لديهما الوقت الكافي ليعيشانه كي يبدها على المشاجرات. كما أنها على الرغم من الرياضة والمراقبة الصارمة، لم يعد جسمها يعجبها. لم يكن بالهدية اللائقة بسيدة. لم يكن هو يتألم من عفتها (إلا بشكل انعكاسي، حين يرى في

لامبالاتها إشارة إلى سنّه). ولكن كان يفكر دون سرور: "انتهى الأمر، لم تعد تحتفظ لي الحياة بشيء مفاجئ." ثم كان هناك ماشا وماتزال.

- ألن يغضب زوجك لأننا انتزعناك منه؟ سأل.

- يوري لا يغضب أبداً، قالت ماشا بجذل.

وفقاً لحديثهم في البراغيا، كانت تبدو كأنها تشعر حيال يوري بالصدافة أكثر من الحب، ولكن في نهاية الأمر، كان ذلك حظاً ملائماً لها نوعاً ما. كانت قد تزوجت تحت تأثير نزوة، كي تبقى في روسيا، مشمئزة من الوسط الذي تترتاده والدتها وزوجها ومن العالم الرأسمالي عموماً. أصبحت هذه البلاد وطنها. من هنا كان يأتي بعض السحر الذي لديها في نظر أندريه.

- كيف هو الوضع هذه السنة، على المستوى الثقافي؟

- كالعادة. نناضل، قالت ماشا.

كانت تعتبر نفسها من الفريق الذي تسميه الحر الذي يناضل ضد الأكاديمية والدغمائية والرقابات الستالينية.

- وهل تكسبون؟

- أحياناً. تسري إشاعة أن بعض العلماء يتحضرون لتحطيم الفكرة المقدسة لجدلية الكون. سيكون هذا نصراً عظيماً.

- شيء جميل أن يكون للإنسان قضية يناضل في سبيلها، قال.

- وأنت أيضاً تناضل، قالت نيكول بمرح.

- لا، ليس منذ حرب الجزائر. أحاول تقديم الخدمات، هذا ليس الأمر نفسه. علاوة على ذلك، هذا نضال لا جدوى منه دائماً.

منذ العام 1962، فقد أندريه كل تأثير على العالم. وربما لهذا السبب كان يتململ بشدة لأنه لم يعد يؤثر. كان عجزه - عجز كل اليسار الفرنسي- يكدّره أحياناً، بالأخص عند استيقاظه. حينئذ، عوضاً عن النهوض، كان ينطوي داخل الأغطية مثنياً الشراف فوق رأسه إلى أن يتذكر موعداً عاجلاً فيقفز من سريره.

- حسن، لماذا تفعل ذلك؟ قالت ماشا.

- لا أرى أي سبب لعدم القيام بذلك.

- يمكنك العمل لصالحك. تلك المقالات

التي كنت تتحدث عنها منذ ثلاث سنوات...

- لم أكتبها. ستقول لك نيكول بأنني

عجوز كسلان.

- ولكن لا- قالت نيكول- أنت تعيش الحياة

كما ترغبها. لماذا تغضب نفسك؟

لم تعد تلحّ عليه مثل السابق، لكنها دون

شك كانت حرباً منهكة. لم تكن لتعلق الكثير من

الأهمية على موضوع ابنها لو لم تكن خائبة قليلاً

من زوجها. بنس الأمر، إنه حر.

- مع ذلك، هذا مؤسف. قالت ماشا.

في داخله كان هناك صدى يردد: هذا

مؤسف. حسرات نيكول، كان قد نال نصيبه منها،

لكنه كان يود أن يقدم لماشا صورة مختلفة عن هذه:

عجوز متقاعد لم ينجز شيئاً. كان لديه عن بعض

الأحداث المعاصرة أفكار تجدها نيكول هامة. عقد العزم على التعمق بها مراراً. كان الحاضر وحده ينهشه، لم يكن يرغب بالالتفات إلى الماضي قبل أن ينتهي من فهمه لعالم اليوم. وأي وقت يحتاج كي يكون على بينة! ومع ذلك، سوف يأتي اليوم الذي ينتهي فيه من هذا الاستقصاء، ويتابع المشاريع التي كان قد شرع بها بكل حمية، لكنها أهملت مؤقتاً. غير أن اليوم لم يأت، وربما لن يأتي. كان اليوم يدرك أن المهمة لا نهائية. عاماً بعد الآخر كان يزداد اطلاعاً، ويجد نفسه أكثر جهلاً. الغموض والمصاعب والتناقضات، كل ذلك يزداد من حوله. تبدو له الصين غير قابلة للاختراق أكثر مما كانت عليه في العام 1950. سياسة روسيا الخارجية توقعه بالحيرة.

- لم يفت الأوان، قال بحماس.

كان قد فات الأوان، فهو لن يتغير. كان بوسعه حقاً أن يستعلم عن زمنه، وفي الوقت نفسه أن يستقصي عن موضوع من التاريخ. لو أنه عرف كيف يفرض على نفسه نظاماً مثل فيليب.

ربما لأنه خضع لكثير من الانضباط في طفولته، فإن كل إكراه يثير غيظه. كان قد احتفظ بحب الهروب من المدرسة للتسكع. هروب كلما كانت تشتد عقوبته كانت تزداد حلاوته. لم يلم نفسه بصدق قط على كسله، فقد كان نابعاً من انفتاحه على العالم ومن إرادته بالبقاء حراً. فجأة، تحت ناظري ماشا بدا له الأمر مختلفاً. عادة سيئة، دأب، عيب لا يُمحي يوسمه. كان قد رضي به وهو ينبعث منه، حتى الآن، لو أراد، لم يكن بوسعه التغلب عليه.

- هذا مؤثر، كيف تتعلق بك ماشا. قالت له عندما أصبحا بمفردهما.

- أتساءل لماذا - قال - أظن أن يوري بالنسبة إليها هو رفيق أكثر منه سنداً. كانت تتمنى أباً. عندما وصلت إلى باريس في العام 1960، كانت قد عقدت العزم على أن تحبني.

- لاتكن متواضعاً جداً- قالت نيكول وهي تضحك- أنا أحببتك دون أن أقرر ذلك.

- كنت شاباً.

- لم تكبر في السن.

لم يعترض. لم يكن يبدو على نيكول أنها تعي عمرها، هو لم يكن يتحدث عن عمره، لكنه كان يفكر فيه في أغلب الأوقات بشكل مخزٍ. بسوء نية وطيش ولوقت طويل، كان يرفض وهو يروي القصص أن يحسب نفسه راشداً. ذلك الأستاذ، ربُّ العائلة الخمسيني، لم يكن هو حقيقةً. وهامي الحياة تتغلق عليه، لا الماضي ولا المستقبل كانا يقدمان له العذر بعد الآن. إنه ستيني، عجوز متقاعد، لم يحقق شيئاً. مثل أي شيء آخر، الندم الذي لامسه، تبدد فوراً. أستاذ في السوربون، مؤرخ معروف، كان سيجد نفسه من جديد مع هذا الوزر والمصير الآخر وراءه، ولم يكن أكثر وطأة عليه. الأمر المشين هو أن يجد نفسه محدوداً، موقوفاً، منتهياً، ذلك أن اللحظات الزائلة تتجمع وتشكل من حولك قشرة، وفي داخلها تكون قد وقعت في الفخ. قبل نيكول واستلقى في السرير. الأحلام، على الأقل هذا ما تبقى. شدّ وجنته على الوسادة. كان يحب الشعور بالتسلل إلى النوم. كانت أحلامه تبلبله جذرياً أكثر

من أي كتاب أو أي فيلم. يغتبط من مجانيتهما، إلا من تلك الكوابيس القميئة التي تتساقط فيها أسنانه داخل فمه. في أحلامه، ليس له عمر، كان يهرب من العمر. هذه الأحلام موجودة في تاريخه وتشرق على ماضيه، لكنها بالنسبة إليه، وعلى نحو غامض لم تكن تمتد إلى المستقبل، كان ينساها. حاضرٌ صرف. ليلة بعد ليلة تمّحي، وتظهر دون أن تتراكم. تجدد أبادي.

- ولكن أريد أن أعرف لماذا يحظر على الأجنب الذهاب إلى فلاديمير بالسيارة، قال أندريه.

كان القطار يسير دون ارتجاج، لكن كل مقاعد العرببة كانت عكس العرببة القاطرة، ونيكول لا تتحمل السفر بالسير إلى الوراء دون أن تضطرب معدتها. (يا لها من إهانة، في الزمن الذي كانت تنافس فيه الصبيان بالصحة والقوة والاحتمال!) كانت تجلس راکعة فوق مقعدها، بمواجهة أندريه وماشا. مع الوقت أصبح الأمر مؤلماً.

- أعرّف أن لا شيء يمكن فهمه - قالت ماشا -
الطريق جيدة، القرى التي تُجتاز مزدهرة. إنها السخافة
البيروقراطية هي سرّ انعدام الثقة بالأجانب.

- لطف وسوء ظن، يا له من مزيج مضحك!
قالت نيكول.

حيرهم ذلك في العام 1963 في صفوف
الانتظار أمام الضريح، في الغوم³، وعلى أبواب
المطاعم، كانت كلمة واحدة من ماشا كافية كي
يفسح الناس لهم للمرور. مع ذلك لا قوا في القرم
الموانع في كل مكان. الساحل الشرقي
لسياستوبول⁴ كان محظوراً على الأجانب. كانت
إدارة السياحة الداخلية قد ادّعت أن الطريق
الجبلي الذي يربط يالطا بسيمفوروبول قيد
الإصلاح. لكنهم قالوا سرّاً لماشا إنه بالحقيقة
مغلق في وجه الأجانب.

- ألم تتعبني كثيراً؟ سأل أندريه.

- سأكون على مايرام.

³ الغوم: مركز تجاري كبير يقع في الساحة الحمراء ويضم مخازن فخمة. م.

⁴ سياستوبول: مدينة تقع في الجنوب الغربي لشبه جزيرة القرم. م.

كانت منهكة قليلاً، لكنها كانت تنسى ذلك وهي تتفرج على انسحاب الريف الممتد الوادع، يلطّفه نور شمس لا تتوقف عن المغيب. ها قد أمضت أربعة أيام جميلة. تغيّرت موسكو قليلاً، بالأحرى ازدادت قباحة. (من المحزن أن التغييرات تنحو منحى سيئاً تقريباً دائماً. بالنسبة للأماكن كما للأشخاص). شقّوا شوارع عريضة، هدموا أحياء قديمة. الساحة الحمراء التي منعت السيارات من دخولها بدت أكثر اتساعاً وأكثر مهابة: مكان مقدس. عندما كانت في الماضي تشمخ إلى السماء، الآن لسوء الحظ هناك وراء كنيسة القديس باسيل فندق هائل يحجب الأفق. ولكن هذا لم يمنع نيكول من مشاهدة كنائس الكرملن مجدداً، أيقوناتها وأيقونات المتاحف بكل فرح. كان ما يزال هناك الكثير من البيوت القديمة التي تسحرها، بالأخص في المساء حين يُرى عبر النوافذ الزجاجية وستار النباتات الخضراء ضوء دافئ لمصباح أباجورة قديمة بشراريب من الحرير البرتقالي أو الوردي.

- انظرا، هاهي فلاديمير، قالت ماشا.

وضعوا حقائبهم في الفندق. تأخر الوقت كثيراً للعشاء فيه، فقررت ماشا أن يأكلوا خارجاً في الطبيعة. وسط السماء التي كانت ماتزال وردية، ارتفع قمر كامل الاستدارة. سلكوا طريقاً محاذياً لأسوار الكرملن. عند أقدامهم نهر ومحطة قطار ولألأة أنوار تبهر الأبصار. عبروا حديقة لها رائحة القبس والبتونيا⁵ حيث تعلو كنيسة، عشاق يتعانقون فوق المقاعد.

- يمكننا التوقف هنا، قالت نيكول.

- أبعد قليلاً أفضل، قالت ماشا.

كانت تأمر وهما يطيعان ونيكول مستمتعة بذلك لأنها ليست معتادة على الطاعة.

تابعوا سيرهم ودخلوا إلى حديقة أخرى تحيط بكنيسة ثانية.

- لنجلس هنا، هذه أجمل كنيسة في فلاديمير.

رشيقة، ممشوقة، تكلفتها قبة بصلية الشكل، مذهبة، واحدة فقط، ثوبها الأبيض تغطيه حتى

⁵ القبس والبتونيا: ازهار تزينية رائحتها عطرة. م.

الوسط تطريزات. كانت تشع ببساطتها. جلسوا،
وفتحت ماشا سيرة الطعام.

- سأخذ فقط بيضتين مسلوقتين، قالت نيكول.

- ألسـت جائعة؟

- بلى، ولكن لا أريد أن أسمن.

- آه، لا تكوني مهووسة، قالت ماشا. سوف

تأكلين أكثر قليلاً!

صوت ماشا الـفظ والمـستـنـكر جعل نيكول تبتسم. لا

أحد كان يكلمها بهذه اللهجة. قضمت البيروجوك⁶.

- هل يوري وفاسيلي طائعان مثلي؟

- هما ليّنا العريكة جداً، قالت ماشا بمرح.

- حاولي إذاً إحراج والدك. قولي له بأنه

بأربعين لفافة في النهار يخاطر بسرطان الرئة.

- اتركاني وشأني أنتما الاثنان، قال

أندريه مجاملاً.

⁶ البيروجوك: معجنات صغيرة على شكل لقيمات محشوة باللحم أو بالجبن أو بالخضار م.

- صحيح، أنت تدخن كثيراً، قالت ماشا.

- أعطني الفودكا إذاً.

ملأت ماشا أقداح الكرتون وخلال لحظة
أكلوا وشربوا بصمت.

- جميلة هذه الكنيسة - قال أندريه بصوت
حزين - أتطلع إليها بكل ناظري وأنا عارف بأنني بعد
ثمانية أيام لن أتذكرها.

- وأنا أيضاً، قالت نيكول.

نعم، قد تنسى الكنيسة البيضاء والمذبة،
نسيت الكثير! ذاك الفضول الذي احتفظت به دون
عيب لم يكن يبدو لها في أغلب الأحيان سوى أثر
باق مهووس. ما نفعه والذكريات تتساقط غباراً؟
كان القمر يلمع ومعه النجمة الصغيرة التي ترافقه
بكل وفاء، ونيكول تردد بينها وبين نفسها أبيات
الشعر الجميلة لأوكاسان ونيكوليت:

" أراك وأنت تتزينين

يزداد القمر بياضاً".

هذه ميزة الأدب، قالت لنفسها: الكلمات نحملها معنا. الصور تدوي، تتشوه، تنطفئ. لكنها كانت تستعيد الكلمات القديمة داخل صدرها، تماماً مثلما كانت مكتوبة. كانت توحدّها مع العصور القديمة عندما كانت النجوم تلمع مثل اليوم تماماً. وهذه الولادة الجديدة، وهذه الاستمرارية، كانت تعطيها شعوراً بالخلود. بليت الأرض، مع ذلك هناك أوقات كهذه تبدو فيها فتية مثل الأزمنة الأولى، ويكون الحاضر فيها مكثفياً بذاته. هاهي نيكول هنا تتطلع إلى الكنيسة، بلا سبب، فقط لترآها. بعد أن دقائق جرات الفودكا، وجدت في هذا التجرد سحراً جارحاً.

عادوا إلى الفندق. لم يكن هناك ستائر على النوافذ، لكن نيكول عقدت منديلاً حول رأسها ونامت بسرعة.

يقظة ملؤها الرقة. في الغرفة الغارقة في النور كان أندريه متفوقاً في سريره، معصوب العينين مثل محكوم بالموت، يسند يده إلى الجدار بحركة طفولية، وكأنه في نومه المضطرب كان يحتاج إلى الشعور برسوخ العالم. كم مرة جلست على طرف السرير - هل

ستجلس أيضاً- تضع يدها على كتفه، تهزّه بنعومة. كان أحياناً يهمس: "صباح الخير أُمي الصغيرة" ثم ينتفض ويبتسم بهيئة مذهولة. وضعت يدها على كتفه.

- أريد أن أريكم شيئاً، قالت ماشا. وهي تدفع باب الكنيسة.

كانت تقودهم في العتمة.

- انظرا المصير المعدّ للغرباء.

كانت اللوحة الجدارية تمثل الدينونة الأخيرة. على اليمين ملائكة ومختارون لاعمر لهم بأثواب طويلة، وعلى اليسار منذورون للجحيم، فرنسيون ببذلات عصرية، أو بملابس تدريب الرقص السوداء، أو بسر اويل مشدودة عند ربله الساق، مع ياقات صغيرة من الدانتيل ولحيات مدببة، ووراءهم مسلمون بالعمامات.

- هذا تراث قديم بالتأكيد، قالت نيكول.

- في الواقع، خلال فترات نادرة فقط، كانت روسيا منفتحة بشكل واسع على الغرب.

لكن بعض الأوساط بقيت بالنسبة إليها عدائية، بشكل خاص داخل الكنيسة. لاحظوا أنهم ملعونون لأنهم كافرون، وليس بسبب جنسيتهم.

- عملياً، الأمر سيان، قال أندريه.

كان في مزاج سيء هذا الصباح، في حين كان النهار السابق رائعاً. كان يحب فلاديمير وكنائسها وجداريات روبلوف، وسيان عنده إن لم يأكل جيداً فقد غدّته أمه جيداً. لكن الأحاديث الجذابة مع ماشا كانت تثير حماسه. حتى ذلك الحين، كان مقتنعا بشدّة بأنها تشاركه آراءه.

- ليس من السهولة اقتلاع جنسيتك -

استأنف وهو خارج من الكنيسة - بالمحصلة، ما شرحته لي للتوّ هو أنكم لم تعودوا بلاداً ثورية، والأممر جيد جداً هكذا.

- إطلاقاً. الثورة، نحن لم نقم بها وهي

ليست موضوع كلامنا. ولكنكم لاتعرفون في فرنسا عنها سوى الحرب. نحن نفهم بعضنا ولانضمر الحقد.

تكلمت ماشا بغضب، وأندريه أيضاً كان يشعر بالسخط.

- لأحد يقبل بذلك. ما أقصده هو أنكم إذا أطلقتهم أيدي أميركا، إذا لم توقفوا التصعيد، عندئذ يُخشى من الحرب. ميونيخ لم تمنع شيئاً.

- هل تعتقد أننا إذا قصفنا القواعد الأميركية، فلن ترد الولايات المتحدة؟ نحن لن نقوم بهذه المخاطرة.

- وإذا ما هاجموا الصين، ألن تعترضوا أيضاً؟

- آه! لا تبدأ من جديد - قالت نيكول - ها قد مضت ساعتان وأنتما تتجادلان. لم يقنع أحدكما الآخر.

مشوا لحظة بصمت. كانت الشوارع مكتظة بالناس. يصادف اليوم عيد أشجار البتولة: بديل لعيد الرب دون شك. أناس رقصوا حتى منتصف الليل في ساحة رقص واسعة في الهواء الطلق (دون طاولات ولا كراسي، فقط حلبة محاطة بالحباك).

باكراً هذا الصباح، تعاقبت فوق الجادة المركزية شاحنات تحمل فتيات يلبسن فساتين

بيضاء وفتيان بربطات عنق حمراء، يمسون في أيديهم أغصان البتولة. كانوا يغنون. داخل الحديقة الكبيرة، حيث تم تحويل أحد الأجنحة إلى مقصف. كان هناك طاولات صغيرة في الخارج وأخرى كبيرة في الداخل تتكدس عليها حلويات الكاتو والساندويشات الصغيرة.

- دعونا نجلس ونأكل شيئاً، قالت ماشا.

- آه، نعم. إذا استطعنا أن نأكل شيئاً،

لنأكل، قالت نيكول.

في الأمس كان القحط في فلاديمير. لم يكن المطعم يقدم لا السمك ولا الدجاج ولا لحم الضأن ولا الخضار ولا الفاكهة. يخنات فقط وجدتها نيكول وماشا لا يمكن هضمها. الخبز، لا أسمر ولا أبيض وله طعم الصمغ. أمام الفندق، كانت تقف صفوف الانتظار لشراء فطائر تتكسر عليها الأسنان. وها نحن نرى هذا الصباح نساء يخرجن من الجناح محملات بأكاليل البيرتزل⁷

⁷ البيرتزل: نوع من الخبز يغمس في محلول الصودا على شكل عقدة ومرشوش بالملح الخشن، يصنع في جنوب ألمانيا. م.

وسلالهن محشوة بالطعام. طلبوا قطع الكاتو
وساندويشات البيض والجبن، كانت رائعة.

- لاشيء يؤكل في المدينة، وهنا هذه
الوفرة؟ ما تفسير ذلك؟ قال أندريه.

- قلت لك يجب ألا تحاول الفهم، قالت ماشا.

بحسب رأيها، يجب ألا تتدهش من أي عدم
ترابط أو من أي عبثية. بقيت البلاد مثقلة بجهاز
بيروقراطي متحجر، مسؤول عن تبديدات هائلة
الحجم وبمقادير تدعو للشلل. كانت الحكومة تجهد
بكل الوسائل لتكافح هذا التقصير، لكن كان يلزم
الوقت كي تتغلب عليه.

- تذكر قصة مقاعد التلاميذ، استأنفت.

كانت تتلوى من الضحك وهي تخرج من
الفندق صباح البارحة بسبب البرنامج الذي كانت
قد سمعته من راديو فلاديمير: أحد المصانع يصنع
مسند الكراسي، وآخر يصنع المقاعد، وأخيراً يقوم
مصنع بتجميعها. ولكن من ناحية، كان هناك دائماً

نقص إما بالمقاعد أو بالمساند، ومن ناحية أخرى، عندما كانوا يحاولون تركيب القطع، كانت إحداها تتحطم. وبعد الخطوات سلسلة من الإجراءات والتحقيقات والمراجعات والتقارير، استنتجوا أن طريقة التجميع فيها خلل. ولكن كان يلزم متابعة دورة إدارية هائلة قبل أن تتم الموافقة على تغييرها: "إنها السخافة الخالصة"، قالت ماشا وهي تشير إلى أن نشر هذه القصة عبر المذيع قد ساهم بالنضال ضد البيروقراطية.

كانت تحكم على النظام بكثير من الحرية، إنها ناقدة وثاقبة الفكر، وإذا كانت تحبذ السياسة الخارجية فليس ذلك نابعاً من طاعة عمياء إذاءً، وإلا لتضايق أندريه أكثر. لكنه لم يكن يرغب باستئناف الحديث عن ذلك، ليس الآن. نظر إلى الجموع حوله: كانت الوجوه مفعمة بالفرح، والناس شاركت بكل رضاها بتلك العروض والاحتفالات وكل هذا العيد. بيد أنه يبدو عليها كأنها مؤطرة بقسوة. إنهم يخضعون للتعليمات. مرح وانضباط، الأمر ليس متناقضاً، لكنه ودّ لو يعرف كيف يتوافقان؟ بطريقة مختلفة دون

شك، بحسب الأعمار والظروف. لو أنه فهم فقط ماذا كانوا يقولون!

- لو أنك تعطينا دروساً بالروسية، قال لماشا.

- آه، لا! قالت نيكول. حتى الأبجدية لا أعرفها. ماذا تريدني أن أتعلم خلال شهر؟ أنت خذ دروساً إذا كان الأمر يسليك، أضافت.

- سوف تضجرين في هذه الأثناء.

- ولكن لا، سوف أقرأ.

- حسناً، غداً في موسكو سوف نبدأ - قال أندريه- ربما سأشعر بالضياع أقل.

- هل تشعر بالضياع؟

- كلياً.

- سوف تكون هذه أول كلماتك لدى وصولك إلى الجنة أو إلى الجحيم: أشعر بالضياع الكلي، قالت نيكول وهي تبسم له بحنان.

لقد ابتسمت دائماً لحيرته. أثناء السفر كانت تتقبل الأشياء كما هي. "ماذا إذاً! إنها أفريقيا وهي مستعمرة!" كانت تقول له في غردايا⁸ (أول لقاء لأندرية بالجزائر عندما كان ما يزال فتياً جداً. كان ثمة جمال، ونساء بالحجاب، ولكن داخل بقاليات علب الكونسروة والخردوات تصبح بلاد العرب بعيدة وتتحول إلى قرية فرنسية. لم يستطيعا فهم هؤلاء الناس الذين كانا يلتقيان بهما: بهم كيف يشعرون بهذا الانتماء المزدوج). أسباب حيرته الآن أكثر جدية بكثير. كيف كان يشعر إنسان سوفيتي في قرارة نفسه؟ إلى أي حد كان هؤلاء الشباب الذين يمرّون وهم يغنون شبيهين بالشبيبة عندنا؟ بماذا هم مختلفون؟ كيف تمتزج فيهم إرادة البناء والاشتراكية والأثرة الوطنية؟ أشياء كثيرة تتعلق بالأجوبة التي يمكن أن تعطى لهذه الأسئلة.

- أنت مخطئ إذ تتحدث عن الأثرة.

قالت له ماشا بعد بضع ساعات في الغرفة، حيث كانوا يستريحون وهم يشربون الشاي بعد نزهة طويلة. استأنفت حديث الصباح بلهجة أكثر هدوءاً:

⁸ غردايا: ولاية غردايا في الجزائر. تقع في وسط الجزء الشمالي للصحراء الجزائرية وهي عاصمة وادي مزاب. وهي جزء من التراث العالمي ومركز سياحي شهير بسبب عمرانها وتاريخها. م.

- الحرب الذرية لا تعيننا نحن فقط! بل العالم بأجمعه. مع ذلك، بما أننا متنازعون ما بين أمرين حتميين: دعم الاشتراكية وإنقاذ العالم، فنحن لا نريد التخلي لا عن هذا ولا عن ذلك.

- آه، أعلم جيداً أن الوضع ليس بسيطاً.

- لو أنكما تتوقفان هنا - قالت نيكول بمرح - تريدني ماشاً أن أرى ترجمتها، إذا لم نفعل ذلك فوراً لن يكون لدينا الوقت.

- نعم، يجب أن نبدأ فوراً، قالت ماشاً.

جلستا متقابلتين على الطاولة. فتح أندريه دليلاً عن روسيا كان قد أحضره معه من باريس، وتظاهر بأنه مستغرق به، ولكن أفكاره كانت تراوح مكانها. صحيح أنه لا يمكن استبعاد فرضية رد أميركي مخيف لكل محاولة لمنع التصعيد. إذن؟ القنبلة التي لم تكن في العام 1945 سوى تهديد شديد الوضوح. أصبحت اليوم احتمالاً مقلقاً. ثمة أناس لا تقلقهم، ويقولون: "بعد موتي، سواء بقيت الأرض أم، لا، الأمر سيان عندي." لا بل إن أحد أصدقاء أندريه قال: "إذا كان لا بد من

ذلك، فسيكون أسفي أقل إذا ما فكرت أنني لم أترك أثراً ورائي." أما هو فكان لينتحر فوراً لو عرف أن الأرض كانت ستتنسف، أو بكل بساطة، كل الحضارات ستدمر، وأن استمرارية التاريخ المحطّم – الباقون على قيد الحياة صينيون دون شك- ستبدأ من الصفر. ربما كان سينا صر الاشتراكية، لكن اشتراكيّتهم لا علاقة لها بتلك التي حلم بها والداه ورفاقه وهو نفسه. ولكن لو أن روسيا استمرت بالتعايش السلمي فالاشتراكية ليست للغد. كم من آمال خابت! في فرنسا، الجبهة الشعبية، المقاومة، تحرير العالم الثالث الذي لم يجعل الرأسمالية تتراجع قيد شعرة. كانت الثورة الصينية قد بلغت حد الصراع الصيني السوفييتي. لا لم يبدُ المستقبل قط لأندرية محزناً لهذه الدرجة. "لم تنفع حياتي بشيء." فكّر. ما كان يتمناه هو أن تكون نافعة في تاريخ يوجّه البشر نحو السعادة. سوف يتوصلون إلى ذلك ذات يوم دون شك. لقد كان لدى أندريه إيمان بهذا لوقت طويل، بحيث لا يمكنه التوقف عن ذلك ولو قليلاً. ولكن بسبب انعطافات كهذه سوف يتوقف التاريخ عن أن يكون تاريخه.

أعاده صوت نيكول من أفكاره.

- لغة ماشا الفرنسية صحيحة تماماً، بالأحرى جيدة جداً، متكلفة الرصانة إلى حد ما.
- أخشى كثيراً ارتكاب الأخطاء، قالت ماشا.
- هذا واضح.

من جديد، انحننا فوق الأوراق التي طبعتها ماشا على الآلة الكاتبة، تبسمان لبعضهما البعض وتتهامسان. نيكول الصارمة عموماً مع النساء، كانت تحمل تجاه ماشا مودة حقيقة، وكان وفاقهما يسرّ أندريه.

- أنا أيضاً أريد أن أرى هذه الترجمة، قال.

حتى لو كان المستقبل يبدو له محزناً، يجب عدم إفساد هذه اللحظة الحلوة من الحميمية. لقد تخلص من اجترار أفكاره.

- سأجلس بكل سرور، قالت نيكول.

كان المطعم الأوزباكستاني ساحراً بخيامه الصغيرة في الهواء الطلق وزبائنه الأجانب. رجال وجوهم مسطحة وعيونهم ضيقة يعتمرون القلنسوات المربعة، النساء بأثواب حريرية متعددة الألوان وجدائهنّ سوداء ثخينة. يقدم في المطعم أطيب ششليك⁹ في موسكو. ولكن كان الأمر ذاته في كل مكان، أجبرهم صخب الأوركسترا على الهرب مع آخر لقمة يبتلعونها. اقترحت ماشا نزهة، وبما أنهم مشوا كثيراً خلال النهار، كانت نيكول تشعر بالتعب. إنه أمر

⁹ الششليك: لحم الكباب المشوي. م.

مغيظ، في الماضي كانت تقطع الكيلومترات بكل نشاط مثل أندريه! الآن، وفي كل مساء، بعد تسكّعهم الطويل، كانت ساقاها تخذلانها. لم تكن تظهر ذلك، ولكن قصارى القول: كان من السخف إرغام نفسها على ذلك. مرّوا أمام مقعد خال، حظ نادر، الأفضل استغلاله. جلسوا.

- طيب، هل يمكننا أخيراً أن نذهب إلى روستوف¹⁰ أم لا؟

- أخشى كثيراً أننا لن نستطيع، قالت ماشا.

- والرحلة الصغيرة على نهر موسكوفاف؟

- بإمكانني أن أسأل...

- آه، لماذا لا نبقى ببساطة في موسكو؟

قال أندريه - أمامنا أشياء كثيرة لنشاهدها.

- في كل الأحوال سوف نعيد مشاهدتها.

¹⁰ روستوف: مدينة تقع على مسير حلقة الذهب الروسية وهي شاهد على ثراء الهندسة المعمارية الروسية. م.

إعادة مشاهدتها. عندما كانت في الأربعين من عمرها، كانت تبتهج لذلك في حينها. كانت تتعطش لكل ما هو جديد. الآن أيضاً. بقي لها سنين قليلة لتعيشها. كانت المراوحة يوماً بعد يوم في الساحة الحمراء مضيعة للوقت. إنها رائعة الجمال. كانت قبل ثلاثة أعوام صادمة. وهذه السنة أيضاً في اليوم الأول. لكن نيكول كانت تعرفها جيداً. هذا هو الفارق بين الرحلة الأولى وهذه. في العام 1963 كان كل شيء جديداً. من هنا نبعث دون شك، الخيبة الخفيفة.

- وأين سنمضي الأمسية؟ سألت.

- لماذا لانمضيها هنا؟ قال أندريه.

- على هذا المقعد، كل الأمسية؟

هذه السنة لم نكن نعرف أين نذهب في المساء. كان يوري يبدو لطيفاً جداً، بما أنه لا يتحدث الفرنسية، فقد كانت العلاقات معه في الغالب وجيزة، لكنه كان يعمل هو وفاسيلي، كل واحد في غرفته، وكى لا نزعجهما كان علينا أن

نهمس. ومع ذلك، كنا نشعر بالضيق. لم تكن غرفة الفندق راحة. أنشئت الكثير من المقاهي خلال تلك السنوات الثلاث. من الخارج، لم تكن قبيحة بجدرانها الزجاجية، ولكن من الداخل كانت شبيهة بمحلات الألبان، كما تفتقر إلى الراحة والحميمية. فضلاً عن ذلك، كانت مغلقة في مثل هذه الساعة. إذن، على هذا المقعد في حديقة صغيرة لها رائحة الوقود بالقرب من محطة المترو؟

- نحن مرتاحون هنا - قال أندريه - رائحة عشب طيبة.

كان يحسّ بالراحة أينما كان. بثوب من الفلانيل لم يكن يبرد. كانت ماشا ترى كل طقس فوق العشر درجات حارّ، لكن نيكول كانت ترتعش في رداؤها المكون من قطعة منديل واحدة. فضلاً عن ذلك: أمسية بكاملها على مقعد!! سوف تشعر بأنها منكوبة.

- أنا بردانة، قالت.

- يمكننا الذهاب إلى بار ناسيونال، قالت ماشا.

- فكرة طيبة.

كان البار يبقى مفتوحاً حتى الثانية صباحاً، ويتم الدفع فيه بالعملة الأجنبية، ويمكن الحصول على ويسكي وسجائر أميركية. كانت قد لفتت انتباه أندريه ونيكول يوم تناولوا الغداء هناك، لكنهما لم يجيبا بشيء. كانت ماشا قد حفظت ذلك وفي هذه الأثناء تذكرته في الوقت المناسب. نهضوا.

- هل هو بعيد؟

- نصف ساعة مشياً على الأقدام. ربما نجد سيارة أجرة، قالت ماشا.

كانت نيكول تتمنى العثور على سيارة أجرة فقد كانت تحس بالألم في ساقها وقدميها. عموماً كان من السهل العثور على واحدة. لقد تضاعف عددها منذ العام 1963. هذا المساء كان يمر العديد منها وضوؤها الأخضر الصغير يدعو للتفاوض، ولكن رغم إشاراتهم لها، كانت السيارة تنسل بلا هوادة. فوق تلك الشوارع

الواسعة، لم يكن لها الحق بالتوقف. كان أقرب موقف للسيارات بعيداً جداً، وقد يكون هناك صف انتظار طويل ولا يوجد سيارة. المشي والجلوس فوق المقاعد، ريجيم قاس. ربما كانت موسكو بالنسبة إلى سكانها جيدة جداً، لم تكن ماشا ترغب بالعيش في مكان آخر، بالأخص ليس في باريس. (وهذا ما كان يدعو للدهشة بالطبع). ولكن بالنسبة للأجانب، يا له من تقشف! ربما كبرت في السنّ خلال هذه السنوات الثلاث، قالت نيكول لنفسها. أصبح تحملي لانعدام الرفاهية أقل. سوف يزداد الأمر سوءاً. "فوق سطح آخر العمر" كان أندريه يقول. يا له من سطح مضحك. أشواك.

- سوف أقع من التعب، قالت.

- ها قد وصلنا.

- كم هو قبيح التقدم في العمر.

أخذتها ماشا من ذراعها: "هيا إذا! أنتما في عز الشباب، أنتما الاثنان."

لطالما قالوا لها ذلك: تبدين شابة، أنت فتية.
مجاملات ملتبسة تبشّر بشقاء الأيام القادمة. حين
نحتفظ ببقايا حيوية ومرح وسرعة بديهية نبقى شباباً.
نصيب الكهولة إذاً هو الرتبة والكآبة والخرف.
يقولون: الشيخوخة شيء غير موجود، إنها لاشيء،
لا بل إنها جميلة جداً ومؤثرة جداً، لكنهم حين
يصادفونها يُلبسونها كلمات كاذبة. كانت ماشا تقول:
أنتما يافعان، لكنها أخذت بذراع نيكول. في الأساس،
كانت نيكول منذ وصولها تشعر بكبر سنّها بقوة
بسبب ماشا. لقد أدركت أنها منذ سن الأربعين أوقفت
الصورة التي لديها عن ذاتها. كانت ترى نفسها في
تلك المرأة الشابة القوية العزم. كانت ماشا ممثلة
بالخبرة والسلطة والنضج تماماً مثل نيكول. هما
متشابهتان، وفجأة تنمّ عنها لفتة، تغيير في نبرة
الصوت، ملاطفة تذكّرها بأن عشرين سنة تفرق
بينهما، وأن عمرها ستون.

- يا له من ازدحام! قال أندريه.

كان البار عابقاً بالدخان وصاخباً. ثمة طاولة
وحيدة محصورة بين شبان أميركيين بضحكاتهم

الجمهورية وفرنسيين عجائز يَتمازحون بصوت عالٍ،
ألمانيون من ألمانيا الغربية يغنون معاً، (العملة الأجنبية
فقط كانت مقبولة). أسطوانة موسيقا جاز تدور، بالكاد
تسمع، لكن كان من الممتع استعادة طعم الويسكي، وطعم
سهرات باريس مع أندريه وفيليب. (الطقس حار هناك،
كانوا سيجلسون في إحدى شرفات مونبارناس.)

- هل تروق لك العودة إلى الغرب؟

- لوقت قصير، نعم.

كان يقطع كل الجسور. لم يكتب لأحد. بالكاد
كلمة صغيرة إلى فيليب خربشها في آخر رسالة من
نيكول إلى فيليب. كان يبتسم في الصباح عندما كانت
تشتري بعناد جريدة "لومانيّة"، قديمة من عدة أيام.
لطالما كان هو هكذا أثناء السفر. ينسى باريس بسهولة.
لم يكن له جذور فيها.

- كل شيء هنا مصطنع ومضحك. قال
بهيئة متعبة.

- هل تريد أن نذهب؟

- لا، بالتأكيد.

كان باقياً كي يسعد نيكول، إنما لم تكن لديه الرغبة بالعودة إلى هنا، وماشا أيضاً لم تكن مرتاحة، لا يوجد روس هنا باستثناء امرأتين غالتا بالتبرج، تبحثان بشكل واضح عن حظهما. مع ذلك، هو مكان ممتع ومنفتح، أو على الأقل بابه موارب على العالم. كان هناك رجل أسود طويل القامة بقميص أحمر قد شرع يرقص وحيداً والناس تتابع إيقاعه بالتصفيق.

- الشيء الغريب أنه يرقص جيداً، قالت نيكول.

- نعم.

كان أندريه يبدو ساهياً. اكتسب عادة مضحكة. منذ بضعة أيام وهو يضغط بإصبعه على خده في أعلى النيرة.

قالت وقد نفذ صبرها إلى حد ما:

- هل يؤلمك؟ راجع طبيب أسنان.

- لا يؤلمني.

- لماذا تجسّ خدك كل الوقت إذًا؟

- أتأكد أن لا شيء يؤلمني.

مرّت فترة كان يأخذ فيها نبضه عشرين مرة في النهار ونظره مثبت على عقارب ساعته. عادات غريبة تافهة لا قيمة لها، لكنها مع ذلك إشارة إلى ماذا؟ أن الحياة تتصلب والشيخوخة لك بالمرصاد. الشيخوخة: كانت تعرف عن ظهر قلب تعاريف قاموس اللاروس لها، والتي صدم نيكول عدم تماثلها. الشباب: صفة ما هو يافع. الشيخوخة: وهن بالجسم وبالذهن ينتج عن التقدّم في السن.



رحل يوري ونيكول فور انتهاء الغداء،
بقي أندريه مع ماشا كي يأخذ درس اللغة
الروسية. مَدَّ يده نحو دورق الفودكا:

- يكفي عملاً اليوم. أضاف بامتعاض، لم يعد
لدي ذاكرة.

- لكن بلى، أنت تبلي جيداً.

- لا أحفظ ما أتعلم. أنسى تبعاً.

شرب جرعة الفودكا وأومات ماشا رأسها
باستهجان.

- لن أعتاد أبداً على طريقة الشرب هذه.

أفرغت كأسه دفعة واحدة.

- صحيح أنه من السخف تعلم لغة خلال شهر

واحد، قال.

- لماذا شهر واحد؟ هل لديكم شيء

هام تفعلائه في باريس؟

- لاشيء.

- فإذا؟ ابقيا هنا لوقت أطول قليلاً.

- لِمَ لا؟ سوف أتحدث بالأمر هذا المساء

مع نيكول.

كانت موسكو مبهجة جداً بأيامها الصيفية

الجميلة هذه. يتدافع الناس حول سيارات

الصهاريج التي تباع مشروب الكواس والبيرة

بالمفرق. كانوا يحاصرون الآلات الأوتوماتيكية

التي تقذف مقابل كوبيك واحد ماء بارداً إلى حد

ماء، والصدودا بطعم الفاكهة الخفي مقابل ثلاث

كوبيات. كان يبدو السرور على وجوههم.

كانوا أقل انضباطاً بكثير مما تخيلهم
أندريه. يعبرون الشوارع والإشارة حمراء بكل
هدوء كأنها خضراء. أعاد التفكير بالحديث الذي
جرى على الغداء مع يوري.

- لم يقنعني يوري، قال.

- مع ذلك، أؤكد لك بأنه على حق، قالت ماشا.

كانا قد تحدثنا بشأن الاتفاقيات الأخيرة التي
عقدت مع شركة رينو Renault، وكان أندريه
مذهولاً من روسيا التي تتصور بأن تصنيع
600000 سيارة فردية أفضل من تحسين شبكة
طرقاتها ونقلاتها العامة. لكن النقلات العامة تسير
على مايرام، قال يوري، وإنشاء طرق قبل أن
يستشعر الناس بالحاجة إليها ستكون سياسة
خرقاء. سوف يطالبون بها بأنفسهم عندما يمتلكون
السيارات. حتى في الأنظمة الاشتراكية يحق
للمواطنين ببعض الرغبات ذات النوعية الخاصة.
كانت الحكومة تبذل جهودها لتطوير المواد
الاستهلاكية، ويجدر تهنئتها عليه.

- هل تعتقدن أنه بالإمكان التوصل إلى تأسيس الاشتراكية بمضاعفة التسهيلات للملكية الخاصة؟

- أعتقد أن الاشتراكية صنعت من أجل البشر وليس العكس - قالت - علينا الاهتمام بمصالحهم لأجل قصير قليلاً.

- نعم، بالتأكيد.

ماذا تخيل بالضبط؟ أن اهتمامات الناس هنا مختلفة؟ وأنهم يتعلقون أقل بالملكات المادية؟ وأن المثالية الاشتراكية باقية حيّة فيهم وتقوم مقام كل ما تبقى.

- يتهمنا الصينيون بالانحطاط، هذا غير معقول. يستحيل العودة إلى الرأسمالية. لكن كن متأكداً أن هذا الشعب لم يعيش سوى التضحيات أثناء الحرب وأثناء مرحلة إعادة الإعمار، واليوم أيضاً، نحن لسنا مدللين. لا يمكن فرض شظف العيش علينا إلى اللانهاية.

- شظف العيش هذا لا يصدمني كثيراً. كانت طفولتي أقسى من طفولة فاسيلي. حياة أمي لم تكن سهلة. هي سعيدة الآن. - بقدر ما يمكن

للمرء أن يكون سعيداً وهو في الثالثة والثمانين-
ذلك لأن احتياجاتها أقل.

- لماذا تقول: بقدر ما يمكن للمرء أن
يكون سعيداً في الثالثة والثمانين؟ الشعور بأن
وراءك حياة طويلة مليئة على نحو جيد، يمنح
الكثير من الرضى.

كانت تتعمد تحويل مجرى الحديث. لم
تكن تحب أن تتحدث مع أندريه عن ذلك الوطن
الذي تتطلع إليه كوطنها الأم. توجيه الانتقاد أو
المديح نحو الاتحاد السوفييتي، كانت تلومه على
ذلك بشيء من الانزعاج.

- أنت غير واضح أبداً، كانت تقول له أحياناً.

تخلى عن الموضوع.

- في الثالثة والثمانين، لا يعود لنا مستقبل
وهذا يزيل كل سحر عن الحاضر.

- بالنسبة إلي، لو وصلت إلى هذا
العمر، أحسب أنني سأمضي أيامي أروي

قصتي. إنه أمر رائع. ثلاث وثمانون سنة
وراءك! مع كل ما شاهدت!

- حتى أنا. رأيت قدراً لا بأس به من
الأشياء. ماذا تبقى لي منها؟

- ولكن تبقى لك كثير جداً! كل ما كنت
ترويه لي البارحة، عن مرورك عند الصقور
الحمراء، عن النضالات الانتخابية في أفينيون...
- أنا أروي؟ لا أتذكر.

كان يفكر مراراً أنه سيكون رائعاً لو
كان الماضي منظرًا يتسكع في داخله على هواه
مستكشفاً شيئاً فشيئاً تعرجاته وطياته. ولكن لا،
كان بوسعه أن يتلو أسماء وتواريخ مثل تلميذ
يسرد درساً أجاد حفظه. كان لديه معرفة مؤكدة
وصوراً مقتطعة باهتة وجامدة جمود صور
كتاب تاريخ قديم، تنبثق بشكل تعسفي فوق
خلفية بيضاء.

- ومع ذلك، نزداد غنى مع التقدم في العمر - قالت ماشا - أشعر بأنني أغنى مما كنت في العشرين، وأنت، ألسنت كذلك؟

- أكثر قليلاً وأقل كثيراً.

- ماذا ضيّعت؟

- الشباب.

صبّ لنفسه كأس فودكا، الثالث؟ أو الرابع؟

- أنا أكره أن أكون شابة.

حدّق في وجهها بشيء من الندم. كان قد أنجبها ثم تركها لأم غبية وسفير.

- هل افتقدت غياب أب حقيقي؟

ترددت.

- ليس بشكل واع. المستقبل هو الذي كان يشغلني. الهروب من وسطي. النجاح في زواجي. تربية فاسيلي بشكل جيد. أن أكون مفيدة. فيما بعد، وأنا أنضج، شعرت بالحاجة إلى...، كيف

أقولها؟ إلى جذور. صار الماضي مهماً: أقصد
فرنسا، وأنت.

كانت تنظر إليه بهيئة مطمئنة وهو
يعتريه الإحساس بالذنب، ليس بسبب الماضي
وحده، إنما لأنه كان يريد أن يقدم لها اليوم
كوالد إنساناً أكثر نجاحاً.

- ألا تشعرين بالخيبة قليلاً لأنني لست
سوى رجل فاشل؟

- يا لها من فكرة! أولاً، ما يزال أمامك الوقت.

- لا، لنقل الحقيقة، لن أفعل شيئاً بتاتاً.
ربما في أسوأ الحالات فيما لو غادرت باريس.

لكن نيكول لم تكن تحتمل العيش في
مكان آخر. وكذلك الابتعاد عن فيليب. قال ذلك
ذات مرة مماًزحاً وهي أجابته مماًزحة: "سوف
تموت من الضجر مثلي." كلا، هو كان يحلم
بذلك على الدوام: وجود والدته خفيف جداً، لم
تكن لتضايقهما. كان سيعمل في الحديقة،
يصطاد سمك الترويت في مياه الغارد

الخضراء، ويمشي في البراح مع نيكول، يقرأ، يتكاسل، وربما يعمل. ربما. ولكن في كل الأحوال، كانت هذه فرصته الوحيدة. أما في باريس، أبداً.

- مهما يكن، لا يهم - قالت- أنا من رأي نيكول: يجب العيش كما نرغب.

- لست واثقاً بأنها تفكر هكذا فعلاً. وأنت نفسك قلت: هذا مؤسف!

- قلت ذلك ككلام فارغ.

انحنيت عليه وقبلته.

- أحبك كما أنت.

- وكيف أنا؟

ابتسمت:

- هل تريد الإطراء؟ حسناً! إن ما أثارني في العام 1960 - ولا يزال سارياً - هو: كيف كنت تهب نفسك للآخرين وفي الوقت ذاته

كنت حاضراً لذاتك. كذلك انتباهك للأمر.
بالقرب منك، يغدو لكل شيء أهمية، كما أنك
مرح. وأقسم لك بأنك بقيت شاباً، أكثر شباباً من
كل من أعرف الناس. أنت لم تضيع شيئاً.

- هل أعجبك إلى هذا الحد؟

كان يبتسم هو أيضاً، لكنه كان يعلم جيداً
بأنه فقد شيئاً ما، تلك الشعلة، ذلك النسغ الذي
يسميه الإيطاليون بكلمة جميلة جداً: *la stamina*
. أفرغ كأسه. لهذا السبب كان دون شك يسعى
كثيراً إلى دفء الكحول المبهج: كانت تقول نيكول.
ولكن ماذا بقي لنا ونحن في هذه السنّ؟ لمس لثته،
بالكاد يظهر. ولكن قليلاً، إذا لم يتوصل طبيب
الأسنان لإنقاذ هذا السنّ الذي يدعم جسره، فلا حلّ
آخر سوى طقم الأسنان. يا له من رعب! لم يعد
يتمنى نيل الإعجاب ولكن على الأقل حين يُنظر
إليه، يمكن التخيل أنه كان ينال الإعجاب. يتمنى ألا
يتحول إلى كائن لاجنسي كلياً. بالكاد كان قد بدأ
يعتاد على وضعه كإنسان بالغ. هاهو يستعجل كي
يصبح عجوزاً مسنّاً. أليس كذلك!

- هل تتضايق نيكول أيضاً من التقدم في السن؟

- أقل مني على ما أعتقد.

- هل خاب أملها لعدم الذهاب إلى روستوف؟

- قليلاً.

نيكول التي لاتقهر، قال لنفسه بحنان. الطاقة نفسها والتعطش نفسه كما كانت في العشرين. لولاها لاكتفى بالتسكع في شوارع موسكو، والثرثرة هنا وهناك، والجلوس على المقاعد. ربما كانت هذه الطريقة أفضل للدخول في جو المدينة. لكنه لو قال لها ذلك لكان أحزنها، وهذا ما لايريدته مقابل أي شيء في العالم.

- إنها الخامسة! تنتظرنا في الخامسة -

قالت ماشا- لنستعجل.

وغادرا الشقة على جناح السرعة.

كانت شقة ماشا تروق كثيراً لنيكول. الساحة كنيبة، الدرج قذر، المصعد الحديدي الصدئ يعلق في معظم الأحيان. لكن الغرف الثلاث الصغيرة - واحدة لكل شخص - كانت منسّقة بشكل ممتاز. بعض الصور، نسخ عن لوحات منتقاة بعناية، سجادات صغيرة أحضرها يوري من آسيا، أغراض جمعتها ماشا خلال طفولتها الجوّالة.

أثناء نزولها الدرج، انتاب نيكول فجأة حنين إلى شقتها وإلى أثاثها وأغراضها الخاصة بها.

رأتها من جديد كما تركتها في آخر صباح وفوق
طاولتها باقة ورد كبيرة نضرة وبسيطة شبيهة
بأوراق الخس. لا ترى وروداً هنا، ومنذ وصولها
منذ عشرة أيام لم تسمع موسيقا. كان ذلك بمثابة
حرمان جسدي تقريباً. انعطفت عند زاوية الشارع
وغذت السير في الجادة الكبرى المؤدية إلى
الفندق. في باريس كانت تعرف كل دكاكين شارع
راسباي، كثيرة هي الوجوه التي تألفها، الكل كان
يتحدث إليها. هؤلاء هنا لا يعنون لها شيئاً. لماذا
تجد نفسها بعيدة جداً عن حياتها؟ إنه يوم جميل من
حزيران. الأشجار في قمة فنتتها، الحمام تهدل في
سواقي حبوب الطلع الزاغب الراكد على طول
الأرصفة. كانت النديفات البيضاء تتطاير حول
نيكول، تدخل إلى أنفها، إلى فمها وتعلق في شعرها
وتصيبها بالدوار. كانت تتطاير في المكتبة في بعد
الظهيرة تلك، وتعلق في شعرها عندما قالت وداعاً
لجسدها بطريقة ما. في الماضي كانت هناك
إشارات. كان انعكاس صورتها في المرآة وفي
الصور قد ذوى، لكنها ماتزال تتعرف إلى نفسها
بهذه الصورة. حين كانت تثرثر مع أصدقاء، كانوا

رجالاً وهي تشعر بأنها امرأة. ثم هذا الصبي الغريب الرائع الجمال الذي وصل مع أندريه، شدّ على يدها بتهذيب غافل، وشيء ما انقلب. كان بالنسبة إليها رجلاً، شاباً وجذاباً، وكانت بالنسبة إليه كائناً لاجنس له، مثل عجوز في الثمانين. لم تُشَفَ قط من هذه النظرة، توقفت عن التزامن مع جسدها، أضحت جثماناً غريباً، ثوبٌ تنكر موجه. ربما استغرق ذلك التحول وقتاً أطول بقليل، لكن ذاكرتها كانت تكثفه داخل تلك الصورة: عينان مخمليتان تشيحان النظر عنها بلامبالاة. مذ ذاك باتت في السرير مثل الجليد. على الإنسان أن يحب نفسه قليلاً كي يُعجب أحدهم بين ذراعيه. لم يفهمها أندريه، لكنه استسلم شيئاً فشيئاً لبرودتها. تعاودها تلك الذكرى كل صيف، في الموعد نفسه، لكن منذ زمن طويل لم تعد تجرحها. هذا الحنين الربيعي الحزين الذي أيقظته في داخلها رقصة حبات الطلع كانت تتلقاه عادة بكل رضى. تذكّار زمن كانت روعة الأيام تخفي فيه وعوداً. اليوم، كانت تشعر بأنها متوترة وسقيمة في الوقت ذاته. غير مرتاحة مع ذاتها. لماذا؟ سألت نفسها.

حين صارت في غرفتها جلست عند حافة
النافذة. شاهدت السيارات المتسارعة داخل النفق
كي تعود وتظهر في الجانب الآخر من شارع
غوركي: "أظن أنني سئمت قليلاً"، قالت لنفسها.
لم تكن تجد الكثير من الروعة في موسكو. حتى
لو سئمت قليلاً فهذا ليس بالأمر الخطير. كانوا
سيذهبون إلى لينينغراد ويشاهدون بسكوف
ونوفغورد. تناولت كتاباً. عادة، كي تتخلص من
كآبتها، كان يكفيها أن تفسرها لنفسها. لكن كلمة
سأم لم تشفع لها، استمر شعورها بالضيق. "هذه
الغرفة كئيبة"، قالت لنفسها. "كئيبة"، "غرفة"،
مامعنى ذلك؟ عندما أخبرها فيليب بزواجه، لا
انسجام الوسائد الرائع ولا فتنة زهور الياقوتية
المكحلة ولا جمال لوحة نيكولا دوستاييل، كل ذلك
لم يخفف عنها. مع ذلك، في الأوقات العادية مثل
الآن، كان يكفي لون فرح أو شكل أنيق أو غرض
مبهج كي يحرك حبها للحياة. أما هنا، لاشيء. لا
منظر الشارع ولا الجدران ولا المباني كانت
تواسيها. ماذا؟ "أندريه!" قالت لنفسها. "أراه كل
الوقت ولا أراه أبداً." في العام 1963 كانت ماشا

منشغلة بعملها. هذه السنة لم تكن تتركهما دقيقة واحدة. من ناحيتها، كان ذلك طبيعياً. لكن أندريه، الأيرغب إذاً بالبقاء وحيداً مع نيكول؟ هل تغيّر إلى هذا الحد؟ في السابق ومنذ زمن طويل، طويل جداً، هو من كان أكثر شغفاً. وهي لم تكن ناضجة للحب، والحب يستدعي افتقاراً، انفطار قلب، التعويض عن شيء ما. بالنسبة إليه، كانت طفولته القاسية، وجفاء أمه، وفشل حبه مع كبير. هي على العكس. كان أهلها قد دلوها، ولم يكن الحب قضية حياتها الكبرى. كانت ترغب بأن تصبح شخصاً مهماً. بعد ممارسة الحب، كانت هي أول من تتلمص خارج السرير. كان يحاول أن يتمسك بها في حضنه هامساً: "لاتذهبي، هذا فطام". كانت تستسلم في أغلب الأوقات وهي على مضض قليلاً. فيما بعد، طوال حياتهما الطويلة، كانت الحاجة إليه والفرح الذي قدّمه لها يزدادان باطراد. اليوم يستحيل القول من من الاثنين متعلق بالآخر أكثر. هما متلاصقان مثل توأمين سيامينين: هو حياتي وأنا حياته. ومع ذلك ها نحن. لم يكن يتألم قط من عدم رؤيتي لوحدي. هل أصاب

مشاعره الفتور؟ يحدث ذلك عند التقدم في العمر، اللامبالاة تستولي عليك. لم يتأثر كثيراً لموت أخته كما في الماضي عند موت والده. هل أتحدث معه بالأمر؟ ربما سيحزنه ذلك. وضعت كتابها وتمددت فوق السرير. كان غداً لذيذاً جداً، الكثير من الفودكا، استولى عليها النعاس.

"أين أنا؟ من أكون؟". في كل صباح، حتى قبل أن تفتح عينيها، كانت تتعرف على سريرها وغرفتها. ولكن في بعض الأحيان، عندما كانت تنام بعد الظهر، كان يراودها عند يقظتها شعور بتلك الدهشة الطفولية. "لماذا أنا أكون أنا؟" كان وعيها المنبعث من الليل على نحو لا يمكن تسميته، يتردد قبل أن يتجسد ثانية. ما كان يدهشها، - مثل طفل حين يعي هويته الخاصة - أن تلقى نفسها في قلب حياتها وليس في قلب حياة أخرى. بأية مصادفة؟ كان من الممكن ألا تكون قد ولدت، حينئذ لن يكون هناك سؤال. "كان من الممكن أن أكون واحدة أخرى، ولكن ستكون حينئذ تلك الأخرى هي التي تتساءل عن نفسها." كان يدوّخها الإحساس من وجودها الطارئ، وفي

الوقت ذاته واجبها الوجودي المطابق بالزمان
والمكان مع تاريخها. نيكول، ستون عاماً، أستاذة
متقاعدة. يحزنها تصديق هذا. تذكر أول وظيفة،
أول صيف، الأوراق الميتة التي كانت تنز تحت
قدميها في الخريف البروفنسالي. يوم التقاعد ذاك
- بعيداً عنها ما يعادل مرتين أو أكثر تقريباً مما
عاشته - كان يلوح لها غير واقعي، مثل الموت
ذاته. وقد أتى. كانت تفكر أحياناً بحنين بذلك
الباب الذي لن تتجاوزه مرة أخرى، بالممرات
الملمّعة، بهرولات وضحكات لن تسمعها أبداً بعد
الآن. كانت قد عبرت خطوطاً أخرى إنما أكثر
ضبابية، أما هذه فقد كانت واضحة وضوح ستارة
حديدية. "أنا على الضفة الأخرى". نهضت
وأعدت تسريح شعرها. كان وزنها يزداد
بوضوح. كم هو مزعج ألا يكون لديها ميزان.
إنها الخامسة والنصف. لماذا لم يعد بعد؟ مع أنه
يعرف بأنها تمقت الانتظار، ولكن ما إن يصل
حتى يغمر الدفء قلبها وتنسى بأنها انتظرت.

- لم نجد سيارة أجرة، أتينا مشياً على

الأقدام.

- لكن لا بأس، قالت.

- عملنا جيداً، قال أندريه.

- وشربت بعض كؤوس الفودكا؟

كانت تلاحظ دون خطأ هذا العيب في اللفظ،
وذاك التردد البسيط في الحركات، مما يشير إلى
أن أندريه قد شرب قليلاً. لم تصبح إشارات ظاهرة
بعد، كانت تسميها: عوارض مسبقة.

- لديك علامات العوارض المسبقة، أضافت.

- شربت القليل من الفودكا، ولكن ليس لدي
عوارض مسبقة.

لم تلح. لم تكن تعكر صفوه عن طيب
خاطر، لكنها كانت تخاف على صحته. ضغطه
عال قليلاً. كانت تستيقظ جافلة أحياناً: "إنه
يعرض نفسه لخطر سرطان الرئة، لأزمة قلبية،
لسكتة دماغية.

- انظري، توازن لا عيب فيه.

أمسك بـماشـا من خصرها وجعلها تدور وهو يدندن لحن فالس. من الغريب أن تراه مع امرأة أخرى. صحيح أن لديها عيناه وذقنه، لكن نيكول كانت تنسى أحياناً أن ماشا ابنته. كان أندريه يحدث ماشا بالكلمات والابتسامات اللطيفة التي كان يقولها لنيكول في شبابهما. شيئاً فشيئاً، كانا قد تبنيا أحدهما تجاه الآخر لهجة من الفظاظاة الحميمية، وصارت حركاتهما تقارب الجفاء. خطأ من هذا؟ خطأي بالتأكيد، فكّرت بحسرة قليلاً. مغالاة في حسن التربية، رصانة شديدة، كسيحة تقريباً. هو أول من قرر التحدث بصيغة المفرد، وكان الإفراط في لطفها يزعجه. شيئاً فشيئاً، عادت إلى تحفظها القديم. زوجان عجوزان يلعبان دور العاشقين، كان سيبدو الأمر مضحكاً. في هذه الأثناء، كانت تشعر على نحو غامض بالغيرة من تواطئه مع ماشا، وتلوم نفسها لأنها لم تعرف كيف تحتفظ من علاقاتها مع أندريه بتلك العذوبة اليانعة. عادت من جديد إلى تزمّتها الذي لم تتمكّن من التغلب عليه كلياً لأنها لم

تتقبل كلياً وضعها كامرأة. مع ذلك لم يكن
ليتمكن أي رجل من مساعدتها على الانسجام
مع نفسها مثل أندريه.

- هل تحبين الرقص؟ سألت.

- مع راقص جيد، أعشق ذلك.

- أنا لم أعرف قط.

- هكذا، لماذا؟

- ذلك لأن شريك الرقص هو الذي
يقودني. كنت حمقاء حين كنت شابة. فيما بعد كان
قد فات الأوان.

- أنا أحب أن يقودني أحد، قالت ماشا.
هذا مريح.

- شرط أن يقودك إلى حيث تريدين الذهاب.

قالت نيكول وهي تبتسم لها برقة.

كان يندر أن تتعاطف مع امرأة. تلميذاتها،
نعم. طفلات، مراهقات، كان بإمكانها أن تأمل

بأنهن لن يشبهن الجيل الأكبر منهن. أما البالغات من نوع إيرين، فكنّ يمارسن "مهنتهن كنساء" باستعراض صاخب. كأنها مهنة! أما الأكبر سناً، فكنّ يرجعن نيكول بالذاكرة إلى عصيانها الطفولي، يذكّرنها بوالدتها. "الفتاة غير قادرة." لن تصبح مستكشفة ولا قائدة طائرة ولا قبطان مهما طال الزمن. فتاة تعني: موسلين، أورغاندي، أيادي الأم البالغة النعومة، عجينة ساعديها المترخخة، عطرها العالق على جلدي. كانت تحلم لنيكول بزواج محظوظ، لآلي، فراء. وبدأ النضال. "الفتاة قادرة"، أكملت دراستها، أقسمت على معارضة قدرها، كانت ستكتب أطروحة مدويّة، وتحصل على منصب أستاذة في السوربون، وثبت أن عقل المرأة يعادل عقل الرجل. لاشيء من كل هذا حصل. أخذت دروساً وكافحت داخل حركات أنصار النساء لكن، مثل الأخريات، أولاء اللواتي لم تكن تحبهن - استسلمت واستهلكها زوجها وابنها وبيتها - لم تكن ماشا بالتأكيد تدع أحد يستهلكها، مع ذلك، كانت تتقبل أنوثتها بيسر: دون شك لأنها تعيش

منذ كان عمرها خمسة عشر عاماً في بلاد ليس للنساء فيها عقدة الدونية. ظاهرياً، لم تكن ماشا تتصور نفسها أدنى من أي كائن.

- من يأخذ الآخر إلى العشاء؟ أين وفي أية ساعة؟ قالت نيكول.

- حجزت طاولة في السابعة والنصف، في باركو - قالت ماشا - أمامنا وقت كافٍ للقيام بجولة صغيرة قبل ذلك. إنه وقت جميل.

- هيا لنقم بجولة، قالت نيكول.

غادرتها كآبتها. جاء أندريه إلى هنا كي يرى ماشا: كان من الطبيعي أن يستفيد أقصى ما أمكنه من حضوره. راحت تتخيل بمرح الأمسية التي سيقضونها هم الثلاثة.

افتتن أندريه بالفندق الذي نزلوا فيه في
لينينغراد. ممرات طويلة تصطف على جوانبها
أبواب رمادية لؤلؤية، تعلوها نوافذ زجاجية
بيضاوية الشكل، تؤطرها صفائر من الزهور،
وتتسدل عليها ستائر حريرية وردية أو خضراء
أو زرقاء، بحسب الطابق. داخل الغرفة مخدع
تحجبه ستارة، وأثاث قديم يرق القلب له: طاولة
مكتب ضخمة من المرمر المزيف، وكنبة من
الجلد الأسود، وطاولة مغطاة بسجادة لها
أهداب. ثريات بذوائب كريستالية كانت تضيء

غرفة الطعام حيث تجد فتاة من الرخام نصف عارية تسوي - أو ترفع- ثوبها وهي تبتسم بغنج.

- الخدمة بطيئة، مثل موسكو! - قالت نيكول - لحسن الحظ، الفرقة الموسيقية ليست صاخبة كثيراً.

- ويأخذون وقتهم.

قال أندريه وهو يتابع بنظره نادلاً كان يقترب من طاولة جانبية لأواني السفرة، وضع عليها كأساً وبقي هناك يتأملها بشروء. الكل كانت حركاتهم مترددة ومضطربة، وكانت بلا شك تثير سخط الزبائن المستعجلين. البناؤون، عمال الحفر الذين كان يشاهدهم يعملون في الشوارع، الموظفون والبائعون، يعطون أيضاً انطباعاً بعدم الاكتراث. مع ذلك، لم تكن هذه البلاد مأهولة بالكسالى. ألم ينالوا في بعض المجالات نجاحات خارقة؟ من دون أدنى شك، كان العلماء والتقنيون يتلقون تأهيلاً خاصاً، لديهم ذهنية مختلفة.

- آه، هاهو الحساب، قالت ماشا.

خرجوا. كم هو رائع نور الساعة العاشرة! عند الظهر، كانت ألوان القصور مكسوفة بنور الشمس. الآن، كان بريق ألوان الأزرق والأخضر والأحمر يرتعش برقة تحت الشمس الشاحبة.

- إنها مدينة بديعة، قالت نيكول.

بديعة حقاً، وأنت في زلاجة تحت روعة وأبهة الزخرفة الإيطالية، وأي مرح هذا بالأخص بوجود شباب على طول نهر نيفا الأبيض المزرق، يمشون زمراً ويغنون.

- ومع هذا، تريدين الذهاب إلى بسكوف و نوفغورود.

- هناك وقت لكل شيء، قالت ماشا.

هذا صحيح، ولكن بالنسبة له، كان يفضل البقاء عشرة أيام هنا. لينينغراد، بيتروغراد، سان بطرسبرغ. كان يود لو يحيط بكل شيء، لا بل - وهو حلم مستحيل - أن يحيط به في الوقت نفسه. المدينة المحاصرة ذات يوم شتائي، الرجال

والنساء المتعشرون فوق الثلج، والذين كانوا يسقطون دون أن يعاودوا النهوض أبداً، الجثث التي كانت تسحب فوق الأرض الجليدية، مشهد نيفسكي مغطاة بالجثث، الرجال المتراكضون، الرصاصات التي تنز، البحارة الصاعدون لاقتحام القصر الشتوي. لينين، تروتسكي. أليس هناك وسيلة لإظهار نسخة من ملحمة مراهقته الكبرى، النائية في البعد حينذاك، والشديدة القرب اليوم وهو يطأ اليوم بقدميه الأماكن نفسها التي جرت فوقها الأحداث؟ ظل الإطار ثابتاً على حاله، لكنه لم يكن يساعد على إعادة الناس والأحداث إلى الحياة، على العكس. نجح المؤرخون جزئياً في إحيائه، ولكن لمتابعته كان يلزم التخلي عن العالم الحاضر، والانغلاق داخل صمت أحد المكاتب، وحيداً أمام كتابك. كانت كثافة الواقع وثقله تدفع سرايات الماضي بعيداً، ويستحيل كتابته فوق هذه الحجارة. لكن لينينغراد كانت باقية، هذا المساء في ليلة بيضاء جميلة. في العام 1963، جاؤوا في شهر آب، كانت الشمس تغيب. اليوم لم تكن تغيب. إنه العيد. فوق الأرصفة صبيان وبنات

يرقصون على وقع موسيقا غيتار. وآخرون يعزفون على الغيتار وهم جالسون على مقاعد حديقة آذار المهفهفة بالليلك، ليلك بعناقيده الوافرة الشبيهة بيلك حدائق فرنسا، ليلك ياباني أكثر بساطة برائحته المبهّرة. جلسوا على مقعد. هؤلاء الشباب مع غيتاراتهم، من يكونون؟ طلاب، موظفون، عمال؟ تراجع عن سؤال ذلك لماشا. كانت في أغلب الأوقات لاتعرف الإجابة على أسئلته، وهذا ماكان يكدّر ها. كانت كمصدر للمعلومات تخيب أمله قليلاً. ربما كانوا يرتابون بها بسبب أصلها الأجنبي، أو أن المجتمع هنا طبقيّ مثل أي مكان آخر. كانت تجهل كل شيء عن حياة العمال والفلاحين، وكذلك عن الجهود العلمية والتقنية الهائلة التي تمنى أندريه أن يعرف عنها ومضات.

- في ليلتي البيضاء الأولى، كان عمري خمسة عشر عاماً - قالت ماشا- كنت ساخطة. لم أكن أفهم كيف بوسع والديّ البقاء في غاية الهدوء في ذلك اليوم. نعم، فكّرت كم هو مخيف التّقدم في السنّ.

- لم يعد هذا رأيك، قالت نيكول.

- أنا مرتاحة مع نفسي كثيراً - كما لم أكن

قط - قالت ماشا- هل تتأسفين على شبابك؟

- لا، قالت نيكول.

ابتسمت لأندريه.

- بما أن الآخرين يشيخون في الوقت ذاته

الذي تكبرين فيه.

"ليلتي البيضاء الأولى"، قال أندريه لنفسه

مردداً. (انتابه ضيق). هذه الليلة الجميلة السعيدة،

لم تكن تخصّه، لم يكن بوسعه إلا حضورها. لم

تكن له: إنهم يضحكون ويغنون وهو يشعر بنفسه

مقصياً: سائح فقط. لم يحب هذا الوضع أبداً، لكن

في النهاية، في البلاد التي تكون السياحة صناعة

وطنية، يكون التجول هو الوسيلة الوحيدة

للانخراط فيها. في شرفات المقاهي الإيطالية، أو

في حانات لندن، كان زبوناً بين آخرين. لكن

لقهوة الإكسبرسو نفس الطعم في فمه وفم

الرومانيين. هنا يلزم معرفة الناس من خلال

العمل، ويعمل معهم. كان مقصياً من أوقات فراغهم لأنه كان مقصياً من عملهم. عاطل عن العمل. لأحد في هذه الحديقة كان عاطلاً عن العمل، هو ونيكول فقط.

لأحد أيضاً كان بسنهما. يالهم من فتية، كلهم! هو كان كذلك. يذكر الطعم الحار والعذب الذي كان للحياة آنذاك. كانت تلك الليلة تخصهم وهم يبتسمون للمستقبل. ما الحاضر دون مستقبل، حتى في قلب عطر الليلك وطرارة أول منتصف الليل؟ فُكر للحظة: هذا حلم، سوف أستيقظ وأستعيد جسدي، عمري عشرون عاماً. لا، أنا رجل بالغ، مسنّ، عجوز تقريباً. راح يتطلع إليهم بذهول حاسد: لماذا لست منهم؟ كيف يمكن أن يحدث لي هذا، أنا بالذات؟

عادوا من الإرميتاج مشياً على الأقدام حيث أمضوا ساعتين. كانت هذه هي زيارتهم الثالثة هذه السنة. شاهدوا كل ما تمنوا مشاهدته مرة ثانية. كانوا سيذهبون في اليوم التالي إلى بسكوف، كي يزوروا بيت بوشكين، الريف

جميل جداً كما تقول ماشا، ونيكول كانت مبتهجة جداً لفكرة استنشاق رائحة العشب. كانت لينينغراد مدينة في غاية الجمال، لكن المرء يختنق فيها. أخذت المفتاح الذي كانت تمده لها مراقبة الطابق التي سلّمت ماشا كلمة: مكتب السياحة الداخلية يدعوها عاجلاً.

- هل سيكون هناك تعقيدات أيضاً؟ قالت نيكول.

- يتعلق الأمر ببعض التفاصيل التي يتوجب تسويتها، قال أندريه.

تفأوله الذي لا شفاء منه! استغرق في قواعد لغته الروسية ونيكول بسطت جريدتها "لومانيته".

كانت بحاجة إلى هذه الرحلة بالسيارة، وإلى المناظر الطبيعية والهواء المنعش وكل جديد. الإرميتاج وسموكني والقصور والأبنية، كانت تعرفها عن ظهر قلب، ولا ترغب بقضاء ثلاثة أيام أخرى هنا.

دفعت ماشا الباب: "الإذن مرفوض!"، قالت بصوت ساخط.

- توقعت ذلك، قالت لنفسها بتعب.

- تشاجرت مع رجل السياحة الداخلية لكن ليس بيده حيلة. تلقى الأوامر، ياله من أمر مغيظ، إنهم يثيرون السخط.

- من تقصدين بـ"هم"؟ سأل أندريه.

- لا أعرف بالتحديد. لم يرد أن يقول لي شيئاً. قد تكون هناك تحركات لعصابات. أو ربما، لاشيء من هذا على الإطلاق.

لاحد له ذلك الاستنكار الذي شعرت به نيكول يتصاعد في داخلها. نفاذ الصبر أمام أقل معاكسة، والخوف من السأم، غدا الأمر عصابياً. إذاً، لنذهب من الغد إلى نوفغورود، لكن قد لا يكون هناك أماكن في الفندق، لطالما استلزم الأمر التنسيق مسبقاً. كما قد تكون الإقامة في موسكو لانهاية لها. بسرعة، لأبتكر شيئاً.

- ماذا عن النزهة التي تحدثت عنها؟
ذلك الدير على الجزيرة؟

- سيكون ممنوعاً أيضاً.

- يمكنك دائماً المحاولة.

- آه، لا! قال أندريه. لن تعاد كل تلك الإجراءات المزعجة كي تسمعهم يجيبون مرة أخرى: لا. دعونا نبقي بكل بساطة هنا. وسأقول لك الحقيقة. ليس لدي أية رغبة بمشاهدة هذا الدير.

- ليكن، لن نتكلم عن هذا بعد الآن، قالت نيكول.

ما إن تركوها حتى أطلقت العنان لغضبها: "ثلاثة أيام للضجر هنا!". فجأة، بدا لها كل شيء مضجراً: تلك الجادات المستقيمة الخطوط، الشوارع المملة، العشاءات اللانهائية على صوت الموسيقى، غرفة الفندق، كل الحياة هنا والنقاشات التي لا تنتهي بين ماشا وأندريه. هو كان يدافع عن الصينيين الذين تكرههم وتخشاهم، وينتقد سياسة التعايش السلمي الحتمية، وهي تدعمها. كانا يرتدان الكلام، أو يروي أندريه لماشا قصصاً تحفظها نيكول غيباً. حتى الآن، لا تراه بمفرده أبداً. أو حتى لفترة قصيرة جداً بحيث لا يمكن أن يدور بينهما حديث. هو ينكبّ على كتابه الروسي،

وهي على صحيفتها... أسندت جبينها على النافذة. هذه الكنيسة السوداء الضخمة والترابية الحمراء، كم هي قبيحة! "إذن مرفوض". لو أنها فقط تمكنت من النقاش، والقتال، لكن كل أمر كان متعلقاً بماشا التي تستسلم ربما بسهولة شديدة. هذه التبعية تثير الأعصاب. في البداية، كانت نيكول تستمتع بها، أما الآن، فقد غدا الأمر يثقل عليها. كانت في باريس تتمركز في وسط حياتها، تتخذ القرارات بنفسها. مع أندريه، أو بمفردها. هنا، كانت تصدر المبادرات والابتكارات عن واحدة غيرها، لم تكن سوى جزء من عالم ماشا. نظرت إلى كتبها، كانت قد أحضرت القليل منها فقط، تلك التي تهمها فعلاً وقد قرأتها في موسكو. عادت إلى النافذة. الساحة، الحديقة، الناس الجالسون على المقاعد، كان كل شيء يلوح كثيباً في نور بعد الظهر الباهت. بدا الزمن راكداً. - كانت ترغب أن تقول: هذا غير عادل- أمره رهيب، كيف له أن يمر بكل هذا السرعة وبطيئاً جداً في الوقت ذاته. كانت تعبر باب ثانوية بوج وهي فتية بعمر تلاميذها تقريباً، تتطلع بشفقة إلى المعلمين الكبار

في السن بشعرهم الشائب. هوب! أضحت معلّمة عجوز وأغلق باب الثانوية من جديد. لسنوات طويلة، كانت صفوفها توهما بأن سنها لم يتغير. عند كل عودة في بداية العام، كانت ترى نفسها بنفس العمر الصغير، وهي تنسجم مع هذا الثبات. في خضم الزمن، كانت صخرة تتحطم عليها أمواج جديدة باستمرار، صخرة لا تتحرك، ولا تبلى. والآن يحملها المدّ، يحملها إلى أن تهوي في قلب الموت. تنقضي حياتها على نحو مأساوي. وفي هذه الأثناء، تقطر ساعة بعد ساعة، ودقيقة بعد دقيقة. دائما يجب الانتظار، كي يذوب السكر، كي تسكن الذكرى، كي يندمل الجرح، كي يتبدد الملل. قطيعة غريبة بين هذين الإيقاعين. تهرب مني أيامي مسرعة في كل يوم وأنا أدوي.

انصرفت عن النافذة، أي فراغ في داخلها، من حولها، على مدّ النظر! هذه السنة، كانت قد ساعدت فيليب في أبحاثه. عند الحد الذي وصل إليه، لم تعد تفيده بشيء. كما كان يعيش في مكان آخر. المطالعة اعتباطياً، دون هدف، تمضية وقت أكثر أهمية بالكاد من الكلمات المتقاطعة أو

لعبة الأخطاء السبعة. كانت تقول لنفسها: "سيكون لدي الوقت، وقتي كله ملكي، يالللحظ الجميل!" هذا ليس خطأً عندما لانجد شيئاً نقوم به، وعلى النحو ذاته أيقنت أن الفيض في أوقات الفراغ يفكر. الفرحة العارم غير المنتظر الذي كان يمنحه - فيما مضى- لدى خروجها في الصباح الباكر من منزلها أو عند خروجها من مترو الأنفاق، بريق أزرق بلون السماء فوق سطح قرميدي كان يفتت قلبها. حين كانت تمشي بخطى وثيدة في الشوارع يهرب منها. إن بريق الشمس المتخلل عبر ثقوب النافذة نحسه بقوة أكبر من سطوعه الحارق حين نواجهه.

لم تحتمل السأم قط، وفي بعد الظهر ذاك، كانت تعاني منه إلى حد الاضطراب، لأنه كان يتخطى مستقبلها. سنوات من السأم إلى أن يأتي بعدها الموت. "لو كان لدي مشاريع فقط، لو كنت ملتزمة بعمل ما!" قالت لنفسها. فات الأوان. كان عليها تدارك الأمر في وقت أبكر. إنه خطؤها. ليست غلطتها وحدها. أندريه لم يساعدها. بطريقة مختلة، مارس الضغط عليها. "عملت ما فيه

الحكاية، اتركى وظائف التلاميذ هذه، تعالى للنوم... ابقى قليلاً في السرير... تعالى للنزهة... سأصطحبك إلى السينما." كل حالات ضعف الإرادة لدى نيكول كان قد سحقها دون أن يدرك ذلك. " لم يكن علي سوى عدم الاستسلام له." قالت لنفسها. كانت تستتبط أضغاناً. ولكن لأن لديها ضغينة تجاهه. لقد حسم الأمر من دون حتى أن يناقشها: "النبق هنا!" وخصوصاً خصوصاً أنه لم يكن يقوم بأدنى جهد كي يلزم ماشا حدها، لا بل لم تخطر الفكرة على باله. هل هو متعلق بي؟ في باريس نحن مرتبطان بشبكة من العادات الصارمة بحيث لا تترك مجالاً لأي سؤال. ولكن، تحت هذا الدرع، ما الذي يدوم بيننا مما هو حقيقي وحيي؟ عندما أدرك من يكون بالنسبة لي فهذا لا يفسر من أكون بالنسبة إليه. سوف أتحدث إليه"، قررت. في موسكو، كان لدى ماشا ما يشغلها، لم يكونا مضطرين لإبقائها طوال الوقت معهما. ولكن ما نفع تدبير أحاديث على انفراد إذا كان هو لا يرغب بذلك بشكل تلقائي؟ لن تحدثه. شرعت بكتابة رسالة إلى فيليب.

- هذه الكنيسة داخل الخدمة. هل ترغبان بالدخول؟ قالت ماشا.

- بالتأكيد، قالت نيكول. آه، يا له من نور ذهبي بديع.

فوق الجدران والأيقونستانس، كانت الأيقونات تلتصق برقعة، والظل نفسه كان يبدو مثل سيل ذهبي، لكن الرائحة كانت تجعل أندريه يشعر بالغثيان: رائحة البخور والشموع، عجائز مبهوتات يجرجن أنفسهن راكعات على الأرض وهن يتمتمن، يسجدن ويقبلن البلاط. كان ذاك مغيظاً أكثر من الكنائس الكاثوليكية. ثمة صوت مخنن كان ينبعث من الداخل في جهة اليسار. دنوا منه. بدا المشهد غريباً. حول كاهن أورثوذكسي له لحية سوداء حريرية طويلة ويلبس حُليه، رجال ونساء يحملون بين أذرعهم أطفالاً رضع بثياب بيضاء سيكون. كان الكاهن يرشّ الرضع بمرشة وهو يبسم الصلوات. كان ليظن أنها لعبة: الآباء يهددون الأطفال الزاعقين وهم يراوحوون في مكانهم.

- عماد على التسلسل! - لم أرَ شيئاً كهذا
من قبل - قالت ماشا.

- تعמיד الأطفال، هل هو شائع؟

- عندما يكون لديهم أم عجوز مؤمنة
لا يريدون إحزانها.

- وهناك، ماهذا؟ قالت نيكول.

كان هناك صنايق مسندة إلى الجدران:
نعوش فارغة... ستة منها كانت موضوعة على
الأرض إلى جانب بعضها البعض، وداخل كل
واحد منها ميت. كانت وجوههم مكشوفة، مشمعة،
وتحيط بها أربطة من تحت ذقونهم، تتشابه كلها.

- لنرحل من هنا، قالت نيكول.

- هل يخيفك ذلك؟

- قليلاً، وأنت لا؟

- لا.

موته الخاص، لم يكن ليتصوره دون
اكتراث. كان يبدو له البقاء على قيد الحياة
والاستمرار في العيش أصعب من الموت.
موت الآخرين... صار سكراناً. عندما كان في
الخامسة والعشرين ومات والده، انتحب. ومنذ
سنتين دفن أخته التي كان يحبها كثيراً دون
دمعة. وماذا عن والدته؟ فكرت ماشا بها في
الوقت عينه الذي فكر بها هو.

- أريد حقاً أن أرى جدتي قبل أن تموت -
قالت - هل ستحزن حين تموت؟

تردد: لا أعلم.

- لكنك تعبدها! - قالت نيكول بلهجة
مستنكرة - أنا سأحزن، كما أنه سيكون لذلك أثر
مضحك. لن يعود هناك أحد من الجيل السابق،
سيدفع ذلك بنا درجة إلى الأمام.

عادوا بسيارة الأجرة إلى ساحة نيفسكي،
وجلسوا في مقهى في الهواء الطلق.

طلب كأساً من الكونياك. لم يكن جيداً، لكنهم في المقهي لايقدمون الفودكا. كان الكونياك أغلى بكثير، وذلك كي يثبطوا من عزيمة السكرى. في الواقع، الكثير من الناس كانوا يحضرون معهم زجاجة فودكا في جيوبهم.

- هل الجنازات الدينية كثيرة؟

- كلا، هذه على وجه الخصوص تكون لنساء عجائز يطلبن المرور بالكنيسة، أو يأخذن أمواتهن. ترددت ماشاً.

- مع ذلك، دخلت ذات يوم أحد إلى كنيسة في موسكو ودُهشت. كان هناك عدد لا بأس به من الرجال في منتصف العمر، وحتى شباباً، أكثر بكثير من السابق.

- شيء مؤسف، قال أندريه.

- نعم.

- إذا كان الناس يرغبون بالإيمان بالسماء، فذلك لأنهم ما عادوا يؤمنون بشيء يذكر على

الأرض. هذا يعني أن سياسة الرفاهية التي بدؤوا
بإتباعها هنا لم تكن بالسعادة التي تحدثت عنها.

- آه، الرفاهية! لا تبالغي - قالت ماشا- لم
أنكر قط بأننا من الناحية الفكرية لسنا في فترة
تراجع، أضافت.

- فترة ستدوم كم من الوقت؟

- لا أعرف. هناك شباب مثل فاسيلي
ورفاقه مفعمون بالحماس، سوف يناضلون في
سبيل اشتراكية لا تستبعد السعادة ولا الحرية.

- برنامج بديع، قال أندريه بتشاؤم.

- ألا تصدق هذا؟

- أنا لا أقول ذلك، ولكن في كل الأحوال،
هذه الاشتراكية لن أشهدها.

نعم، كان لضيقه اسم، اسم لا يحبه لكنه
كان مرغماً على استخدامه: خيبة الأمل. كان ينفر
عموماً من المسافرين العائدين من الصين وكوبا
والاتحاد السوفييتي أو حتى من الولايات المتحدة

الأميركية عندما يقولون: "لقد خاب أملنا". فقد أخطؤوا حين تصوروا مسبقاً أفكاراً دحضتها الوقائع فيما بعد. كان هذا خطأهم وليس خطأ الواقع. لكن في نهاية الأمر، الكل أحسنّ بالشيء عينه. ربما كان الأمر سيكون مختلفاً لو أنه زار أراضي سيبيريا البكر، والمدن التي يعمل فيها العلماء. ولكن في موسكو ولينينغراد، لم يجد ما كان يتمناه. ما الذي كان يتمناه بالتحديد؟ كان الأمر غامضاً. في مطلق الأحوال، لم يعثر عليه. بالتأكيد هناك فرق شاسع بين الاتحاد السوفييتي والغرب. عندما كان التقدم التقني في فرنسا يعمل فقط على تعميق الهوة بين أصحاب الامتيازات والمستغلين، كانت البنى الاقتصادية هنا تعمل حتى يأتي يوم يستفيد فيه منها الجميع. سينتهي الأمر بالاشتراكية أن تغدو واقعاً. ذات يوم، سوف تنتصر في العالم أجمع. كل ما هنالك أنها تمر الآن بفترة انحسار - باستثناء الصين ربما، مع أن كل ما يعرفه عنها كان مريباً وغير مؤكد -. هناك عبور لفترة تراجع، سوف يخرجون منها، ليكن. الأمر ممكن ومحتمل، لكن أندريه لم يكن يؤكد قط. بالنسبة

للشباب، لم تكن هذه الفترة أسوأ من غيرها، ليست أسوأ من الفترة التي كان هو فيها في العشرين. هذه السنوات التي تشكل بالنسبة إليهم نقطة انطلاق لم تكن توصل بالنسبة إليه سوى إلى نتيجة واحدة: السقوط. في سنّه، القفزة التي ستتبع ربما، لن يشهدا. "الطريق الذي يؤدي إلى الخير أسوأ من الشر." يقول ماركس. كان شاباً، وأمامه أبدية خادعة، بوثبة واحدة قفز إلى آخر الطريق، بعد قليل لن تبقى له القوة الكافية لتجاوز ما يسمّى تكاليف التاريخ المزيفة، ويظنها عالية على نحو رهيب. كان يتكل على التاريخ كي يبرّر حياته. لم يعد يتكل عليه بعد الآن.



مضى الوقت بالإجمال سريعاً، يومان
ممتعان في نوفغورود، وبعد أقل من أسبوع
ستعود إلى باريس وإلى بيتها وحياتها، ولأندرية.
كان يبتسم لها:

- كنت ترغبين بالذهاب إلى الداتشا¹¹.
حسناً! لقد رتبت الأمر، قال.

- ماشا، يا لها من فتاة لطيفة!

- إنه بيت إحدى الصديقات، على بعد ثلاثين
كيلومتراً. سيصحبنا يوري بالسيارة. ليس هذا الأحد،
بل الذي يليه.

¹¹ الداتشا: بيت ريفي شعبي. م.

- الذي يليه؟ ولكن، ألسنا راحلين في يوم
الثلاثاء؟

- ولكن لا، نيكول. تعلمين جيداً بأننا
قررنا التمديد لعشرة أيام.

- قررتَ هذا دون حتى أن تقول لي كلمة
واحدة! قالت نيكول.

فجأة، تصاعدت أبخرة حمراء داخل
رأسها، وضباب أحمر أمام عينيها، وشيء أحمر
داخل حنجرتها يصرخ: إنه يسخر مني! ولا حتى
كلمة واحدة!

- ولكن بلى، تحدثنا معاً بذلك. لم أكن
لأخذ القرار قط قبل أن أكلمك. وكنت موافقة.

- أنت تكذب!

- كان ذلك في اليوم الذي شربتُ فيه قليلاً
من الفودكا عند ماشا، حين تصورتُ أن لدي
أعراضاً مسبقة. تعشينا في باكو، وعند عودتنا بعد
أن أصبحنا بمفردنا، حدثتك عن ذلك.

- لم تقل شيئاً بتاتاً. أنت تعلم ذلك جيداً.
أقسم لك أنني كنت لأظهر استيائي. قررت من
دوني والآن أنت تكذب.

- لقد نسيت، طيب، هل سبق لي
ووضعتك أمام أمر واقع؟

- ثمة بداية لكل شيء. وزيادة على ذلك،
أنت تكذب. هذه ليست المرة الأولى.

لم يكن يكذب قط في الماضي، ولكن هذه
السنة، كذب مرتين بشأن أمور تافهة. اعتذر
ضاحكاً: "إنه العمر، غدوت كسولاً، كان سيطول
الحديث وأنا أوضح فكرتي، لهذا اختصرت
الكلام." و وعد ألا يتكرر ذلك، لكنه تكرر. واليوم
كان الأمر أكثر جدية من قصة زجاجة أفرغها أو
زيارة لطبيب مشعوذ. كانت نادراً، بل نادراً جداً،
ما تخصص أندريه بسخطها. لكن سخطها غدا الآن
إعصاراً يحملها بعيداً عنه وعن نفسها آلاف
الكيلومترات، إلى خارج حياتها وخارج جسدها، إلى
عزلة مخيفة جليدية وحرارة في الوقت نفسه...

أقبل أندريه ينظر إلى الوجه المتغير، العنيد، الشفاه المزمومة، هذا الوجه الذي كان يرعبه كثيراً فيما مضى وما يزال يبلبله. قلتُ لها ونسيتُ. في ذلك الوقت، كانت ماتزال مسرورة هنا. عشرة أيام أكثر أو أقل، هذا لايهم كثيراً. كانت قد بدأت تسأم شيئاً فشيئاً، تشتاق إلى فيليب، أنا لم أعد أرضيها، لم أرضها قط. قلت لها في هذه الغرفة، بعد العشاء في باكو. لكنها مثل كل الناس الذين يظنون أن ذاكرتهم لاتخيب، لاتقبل أبداً إمكانية خطنها. مع ذلك، كانت تعلم جيداً أنه لا يستطيع أن يقرر شيئاً دون استشارتها، وخلال هذه الرحلة، حقق كل رغباتها. عشرة أيام إضافية في موسكو ليست بالأمر المضمني.

- اسمعي، عشرة أيام إضافية هنا ليست بالمأساة.

كانت عينا نيكول تقدحان من السخط، لا بل من الحقد.

- أنا ضجرة! ألا تفهم بأنني ضجرة!

- آه، أعرف هذا. تشتاقين إلى فيليب وإلى
أصدقائك. أعرف تماماً بأنني لا أَرْضِيكَ.

- اذهب من هنا، إِلَيْكَ عني. لم أعد
أحتمل رؤيتك! ارحل.

- ويوري وماشا، هما بانتظارنا في الأسفل.

- قل لهما أنه لديّ صداق. قل لهما أي شيء.

أعاد إغلاق الباب مرتبكاً. "تسأم إلى هذا
الحد معي!" كما أنها لم تستنكر عندما قال لها:
"أنا لم أَرْضِكِ قط." لم يكن متمسكاً جداً بالبقاء
هنا، لكن ماشا كانت متمسكة ولا يريد أن يحزنها.
كان يجدر بنيكول أن تتفهم... لكن بمجرد التفكير
بمشاجرته مع نيكول كاد يغمى عليه. كل خلاف
فيما بينهما لا يحتمله. في النهاية، سوف يعود حالاً
بعد العشاء، وسوف توافق على الاستماع إليه. هل
ثمة احتمال أن يكون قد أهمل الكلام معها فعلاً؟
لا، إنه يتذكر نفسه جالساً على سريره بمنامته
بينما كانت تمشط شعرها. ماذا أجابت؟ "لمَ لا؟"

أو شيئاً من هذا القبيل. لا أقرر شيئاً على الإطلاق من دونها. هي تعرف ذلك جيداً.

ما إن أعيد إغلاق الباب حتى خنقتها عَبراتها. كأنها فقدته للأبد من دون أن يموت. في أقل من دقيقة يمكن للمقصلة أن تفصل رأساً، في أقل من دقيقة، عبارة واحدة قطعت صلاتها مع أندريه. كيف استطاعت أن تتخيل أنهما ملتحمان أحدهما بالآخر؟ بسبب ماضيهما، كانت تعتبره خطيباً يتعلق بها بقدر ما تتعلق به. لكننا نتغير. هو تغير. ليكذب، هذا ليس أسوأ ما في الأمر، كان يكذب من الجبن كطفل يخشى التوبيخ. الأسوأ هو أنه اتخذ القرار مع ماشا دون أن يحسب لها حساباً، ونسيها كلياً، غافلاً عن استشارتها ولا حتى إعلامها. هل لديه الشجاعة للنظر إلى الأشياء مواجهة؟ خلال ثلاثة أسابيع، لم يسعَ قط لتدبير حديث لنا على انفراد، كل ابتساماته، كل حنانه، يتوجه به إلى ماشا. ماذا أريد وماذا لأريد، يستخف به. "لنبقَ إذاً في موسكو. لنبقَ في لينينغراد." إنه مرتاح هنا، ويتخذ خطيبة يرتاح إليها أيضاً. هذا لم يعد حياً. أنا اعتياد فحسب.

لم تكن تحتمل ذاتها داخل هذه الغرفة. أعادت رتوش زينة وجهها ونزلت إلى الشارع. مشت. لطالما فعلت ذلك كي تهدئ مخاوفها وثورات غضبها، كي تطرد عنها صوراً. غير أنها لم تعد في العشرين، ولاحتى في الخمسين، انتابها التعب فوراً. جلست فوق مقعد في حديقة صغيرة، قبالة بركة تطفو عليها إوزة التّم العراقية. بعض الناس كانوا يحدثّون في وجهها لدى عبورهم، لاشك أن وجهها كان يبدو مذعوراً، أو ببساطة، يتعرفون إليها كغريبة.

كان أندريه حينذاك يتعشى مع يوري وماشا دون شك، في مطعم المحطة البحرية على ضفة نهر موسكوفيا. كيف رمّوها؟ ربما كانت الأمسية بالنسبة له ذكرى بغیضة، ولكن هذا ليس مؤكداً، كان لديه مهارة التعلق باللحظات الآنية، ومحو كل ما يكدره. كان ينساها، يقصّيها، يفكر بأنه سيعود ليراها قد هدأت. كان هكذا على الدوام. في اللحظة التي يكون فيها سعيداً، عليها أن تكون سعيدة. في الواقع، لم يكن هناك تناسب بين حياتيهما. لقد نال كل ما كان يتمناه: بيت، أولاد،

أوقات فراغ، مسرّات، صداقات وبعض الاضطرابات. في حين أنها تخلت عن كل طموح شبابها بسببه. لم يشأ قط أن يفهم ذلك. بسببه، أضحت تلك المرأة التي لا تعرف كيف تشغل الوقت المتبقي لها في الحياة. رجل آخر كان ليدفعها إلى العمل. كان ليقدّم القدوة. أما هو، فقد صرفها عنه. ألفت نفسها فارغة اليدين، ليس لديها شيء في العالم سواه، وفجأة، لم يعد هو نفسه لديها. تناقض فظيع من الغضب، مولود من الحب، ويقتله الحب. كل لحظة تستذكر وجه أندريه وصوته، تزكي نار ضغينة كانت تجتاحها، كما هو الحال أثناء تلك الأمراض عندما نخلق ألماً الخاص، كل شهيق يمزق رئتيك لكنك مضطر للتنفس. "والآن، ماذا بعد؟" سألت نفسها ببلاهة وهي تعود إلى الفندق. ما من مفر. سوف يتابعان العيش معاً، سوف تخفي مخالبتها، العديد من الأزواج يعيشون عيشة خاملة على هذا النحو في استكانة وبالتراضي. داخل العزلة، أنا وحيدة. إلى جانب أندريه، أنا وحيدة. أنا مقتنعة. دفعت باب الغرفة. فوق السرير، كانت منامة أندريه،

وعلى الأرض بابوجه، وعلى الكومودينو، غليونه
وعلبة التبغ. خلال لحظة أضحى حاضراً بشكل
جارج، كأنه أبعد عنها بسبب مرض أو نفي وتراه
الآن من جديد في أشيائه المتروكة. بلغت الدموع
مآقيها. تشنجت. من داخل حقيبة دوائها تناولت
أنبوب المنوم وابتلعت حبتين واندست في فراشها.
"أنا وحيدة!" صعقها القلق. القلق من الوجود أكثر
قسوة بكثير من الموت. وحيدة مثل حجر وسط
الصحراء، محكوم بأن يدرك لا جدوى وجوده.
كان كل جسدها المتشنج والمنكمش يشكل صرخة
صامتة. ثم تركت نفسها تتساق داخل ملاءاتها
وغرقت في النوم.

عندما استيقظت في الصباح، كان ينام
متوقفاً، مسنداً يده إلى الجدار. أشاحت ببصرها
عنه. ولا أي اندفاع نحوه. كان قلبها جليدياً وكثيباً
مثل كنيسة صغيرة خارج الخدمة لا يلمع فيها أي
بصيص. البابوج، الغليون، عادت أشياء
مشاعرها، ما عادت تذكّر لها بإنسان غالٍ غائب.
ما عادت سوى امتداد للشخص الغريب المقيم في

الغرفة نفسها. "آه، أكرهه"، قالت لنفسها بيأس.
"قَتَلَ الحب الذي لدي تجاهه!"

كانت تروح وتجيء داخل الغرفة، صامتة، عدائية. لقد اصطدم مراراً في شبابيها بهذا الوجه الغاضب: "أنا لا أقبل..... لا يجدر أن...." كانت هذه الصرامة آنذاك تجمده. كان أكبر منها سناً، لكنه كان ينظر طويلاً إلى كل البالغين كأنهم كبار. اليوم، عيل صبره منها. "إلى متى ستستمر بالحد في وجهي؟" كانت تبالغ. فعل كل شيء كي يرضيها أثناء هذه الرحلة. وكل حياتهما. بقي في باريس بسببها. حتى لو نسيت حديثهما، كان بإمكانها أن تصدقه قليلاً. كأنها اغتتمت الفرصة. أية أحقاد كانت تغذي؟ هل تأسف لعدم زواجها من رجل أكثر براعة؟ لم تكن تحبه حقيقةً إذاً. لو كانت تحبه حقاً لما سئمت معه. في بداية زواجهما، عانى من فتورها، لكنه كان يفكر أنه سوف يأتي يوم و... ظن أن هذا اليوم قد جاء. كان حريّ به الظن أنه لم يأت. كان ينتظر من التقدم في السن عزاء وحيداً: فيليب متزوج، هي متقاعدة، ستكون نيكول له وحده بكاملها.

ولكن إذا كانت لاتحبه، إذا كان لا يرضيها، وهي قد تشبثت بضغائنها، فسوف يكون حلم العزلة الثنائية هذا عرضة للخطر حقاً. سوف تكون سنيّ الشيوخوخة كئيبة، مثل الناس الذين لا يبقون معاً إلا لأنهم، بعد تجاوز سن معينة، لا يمكنهم الانفصال. لا، لا يستطيع تصديق ذلك. هل هذه هي المرأة التي كانت ابتسامتها حتى البارحة تشع حناناً، هي نفسها التي تزم شفيتها الآن بتقطيبة مخيفة؟

- يا له من وجه عبوس!

لم ترد بشيء، واستولى عليه الغضب هو أيضاً.

- أتعلمين، إذا أردتِ الرحيل قبلي، أنا لا أحتجرك.

- هذه نيتي بالفعل.

أحسّ بصدمة. لم يعتقد بأنها ستأخذ عرضه على محمل الجدّ. حسناً! فلترحل، فكّر. على الأقل ستجلي الأمور، لم أعد أريد الخداع، أنا بالنسبة لها عادة قديمة، فهي لم تهّم بي عشقاً قط. أدركتُ ذلك في

الماضي ونسيته. أتذكر هذا وأحيط قلبي بدرع. أدعها تفعل ماتشاء، وأنا كذلك. ففكر بحديقة فيلنوف برائحة شجر سروها والورود التي تسحقها الشمس. بعد عودتي من موسكو، سوف أغادر باريس. سأذهب للسكن في بروفانس، أنا في غاية الغباء كي أضحي بنفسي من أجلها. كل واحد ملزم بنفسه.

صحيح إذا ما يزعمون، لا يستطيعون التحدث إلى بعضهم البعض، لأحد يفهم الآخر، كانت نيكول تتساءل؟ كانت تنظر إلى أندريه الجالس على ديوان ماشا ويديه كأس من الفودكا وتفكر بأنه كان يجدر بها مراجعة كل ماضيها. لقد عاشا متقاربين، كل واحد ملزم بنفسه، جهل أحدهما الآخر ولم يختلطا، شفافين.

عند مغادرته غرفتهما هذا الصباح بالتحديد، نظر إليها أندريه بهيئة مترددة. كان يوّد أن يشرع ببداية شرح. فتحت الباب، لحق بها، وداخل سيارة الأجرة لزم الصمت. لا يمكن شرح أي شيء. هذا الغضب، هذا الألم، هذا الانقباض

في قلبه، تتحطم فيه كل الكلمات. هناك الكثير من الإهمال، الكثير من اللامبالاة!

أمام ماشا طوال النهار، مثلاً دوريهما بكل تهذيب. كيف سأخبرها بأنني راحلة قبل أندريه؟

كان يشرب الكأس الرابعة من الفودكا، حرّاً بنفسه. حين كان شاباً، كان الكحول يجعله شاعرياً وفاتناً. كان يهذر قليلاً إنما دون تلعثم أو ترنج. الآن، منذ متى؟ صار يرتبك بكلامه وتتعثّر حرّكاته، الطبيب قال له إن الكحول والتبغ مضرّان لصحته. كان يزدرد موته على جرعات صغيرة. من جديد، خوفها الذي صار لاذعاً أكثر من غضبها، دفعها إلى العناد. "إنه يشرب كثيراً." زمّت شفيتها. هو حر، بوسعه قتل نفسه على نار خفيفة إذا كان ذلك يرضيه. في كل الأحوال، سوف ينتهي بهما الأمر إلى الموت، وفي بعض الحالات يكون الموت مثل الحياة تقريباً. ثمة شيء من الشيخوخة في الطريقة التي يحاول فيها الإصرار على التحدّث إلى ماشا بالروسية. كانت تهزأ من لهجته، كانا يتفاهمان مثل لصّين وقعا على كنز ثمين. كان يجسّ خدّه بإصبعه

للحظات بهيئة قلقة. ونيكول تريد الصراخ: "لسنا كهلين إلى هذه الدرجة، ليس بعد، لا!" لقد تغيّر، لاحظت ذلك أثناء هذه الرحلة. ربما وهي لاتراه، كانت تراه كل الوقت. لم يعد راغباً سوى بالانسحاق للحياة. في الماضي لم يكن يحب سوى الحياة. لكن الحياة بالنسبة إليه كانت ابتكاراً مستمراً، مغامرة ينقاد إليها، مغامرة مفرحة، غير متوقعة. الآن، كان يوحي إليها بأنه يعيش حياة خاملة: هذه هي الشيخوخة، لأريدها.

شيء ما تزرع داخل رأسها. كمن تلقى صدمة على رأسه واضطربت رؤياه، وراح يرى للعالم صورتين وبارتفاعين متغايرين، دون أن يتمكن من تحديد العليا من السفلى. الصورتان اللتان لديها عن حياتها الماضية وحياتها الآنية لا تتطابقان. ثمّة خلل في مكان ما. كانت هذه اللحظة تكذبها. هذا ليس هو، هذه ليست هي، هذا المشهد يجري في مكان آخر... لا، للأسف! الماضي هو الذي كان سراياً، هذا يحدث دائماً. كم من نساء خُدن بحياتهن، طوال حياتهن، لم تكن حياتها ماترويه لنفسها. ولأن أندريه كان

انفعالياً وعاطفياً، ظنت بأنه يحبها بشغف. في الحقيقة، كان ينساها ما إن تغيب عن ناظريه، أي شخص ثالث بينهما لم يكن ليزعجه. بالنسبة إليها، كان حضور أندريه فرحاً لا ينضب، بعكس حضورها بالنسبة إليه، لابل ربما أثقل عليها وأثقلت عليه دائماً.

- ماشا، هناك مسألة علينا تسويتها: مسألة رحيلي. أترين، لدي التزامات في باريس.

- آه، بلا مشاكل، قال أندريه. التفت ناحية ابنته.

- تناكدني لأنها تدّعي بأنني قررت إطالة إقامتنا هنا من دون استشارتها. في الواقع، تعلمين جيداً بأنني حدّثتها بالأمر.

- بالتأكيد، قالت ماشا بانفعال. أول شيء قاله لي حين اقترحت أن تمكثوا لوقت أطول كان: سأحدّث نيكول بالأمر.

هذا التواطؤ بينهما!

- لم يفعل، نسي أن يقول لي وهو يكذب عليّ.

لا يزال رأسها يغلي من الغضب. ولكن للمرة الأولى في حياتها لا تلقي الرعب في قلبه. لقد أخطأت بشكل جذري.

كانت ماشا تحاول إصلاح الأمر، تجيب بجفاء، وتتنظر إليه بملامة وهو يسكب لنفسه الفودكا. مناكدة، هذا ما كانت تؤول إليه. اجترع الفودكا دفعة واحدة على الطريقة الروسية، بتحدّ.

- يمكنك فعلاً أن تثمل، الأمر سيان عندي كلياً، قالت بصوت جليدي.

- أرجوك، لاتعودي فوراً إلى باريس، ذلك يحزنني، قالت ماشا.

- أنتِ، ربما، ولكن هو لا.

- لا، أنا لا.

- أترين؟ حول هذه النقطة نحن على الأقل متفقان. سيكون بوسعه الاستمتاع بعشر زجاجات من الفودكا دون أن يحتج أحد.

- بالأخص أنه لاشيء ممتع في رؤية وجهك العبوس. أظن أن انفصلاً قصيراً سيفيدنا نحن الاثنان. لدى عودتي من موسكو، سأنزل إلى فيلنوف. ولاأطلب منك اللحاق بي.

- اطمئن، لن أتبعك إلى هناك.

نهضت.

- لم نعد نحتمل رؤية أحدنا للآخر. دعنا لا نلتقي بعد الآن.

مشيت باتجاه الباب. أمسكت ماشا بذراعتها.

- هذا سخف. عودي. أفهمينا مرادك.

- لم نعد نرغب بذلك، لأنا ولاهو.

انصفق الباب.

- كان يجدر بك منعها من الذهاب،
قالت ماشا.

- حاولت التفاهم معها هذا الصباح. لا تريد
الإصغاء. ركبها الشيطان.

- صحيح أنك تشرب زيادة قليلاً، قالت ماشا.
- حسن، أعيدي هذه الزجاجاة.

وضعت الزجاجاة وعادت لتجلس قبالة أندريه
بهئية محتارة.

- أنتما الاثنان، شربتما كمية لا بأس بها في
باكو. ربما نسيت أن تحدثها وظننت بأنك فعلت.

- أو أنها هي لم تستوعب الحديث لأنها
نامت فوراً بعد ذلك وهي ثملة إلى حد ما.

- هذا ممكن أيضاً. ولكن في كل الأحوال،
أنتما الاثنان نيتكما سليمة، لماذا تغضبان إذاً؟

- أنا لا أنكر نيتها الصادقة. هي من يدّعي
بأنني أكذب. ليس لها الحق.

ابتسمت ماشا.

- لم يكن يخيّل إليّ قط أنه بإمكانكما أن
تتناوشا هكذا... مثل الأطفال.

- بعد أن تجاوزنا الستين؟ لكن، أتعلمين،
البالغون وحتى العجائز، من هم؟ أطفال
منفوخون بالعمر.

كانت هذه المشاجرة بغیضة بالنسبة إليه
بالتحديد، بسبب سنّهما. بعد كل هذا الوفاق وراءهما
تقوم نيكول بخذلانه. كي تشك بصدقته، لاشك أنها لم
تمنحه قط كل ثقّتها واحترامها. كما تراقب دائماً
الأقداح التي كان يشربها. كل هذا، كي تستمتع
بمضايقتي. لم يكن يريد التفكير بها بعد الآن.

- أعطني صحيفة البرافدا ودعينا نعمل.

- الآن؟

- لست ثملاً. قال بشيء من العدائية.

شرع بترجمة مقال. نهضت بعد لحظة.

- سوف أتصل كي أعرف إذا كانت نيكول عادت سالمة.

- لماذا لا تكون قد عادت؟

- كانت تبدو ساخطة جداً.

- في كل الأحوال، أنا لن أكلمها.

نيكول لم تعد، ولا حتى في منتصف الليل، بعد ساعة. أو من المحتمل أنها عادت لكنها لا ترد على الهاتف.

- سوف أصعد معك، قالت ماشا عندما توقفت سيارة الأجرة أمام الفندق. أريد أن أتأكد أنها هنا.

أعطت مراقبة الطابق المفتاح لأندرية. نيكول لم تكن هناك إذًا. اعتصر قلبه من الصمت والفراغ داخل الغرفة. تبددت أبخرة الفودكا ومعها غضبه.

- أين يمكن أن تكون؟

لم يكن يحب أن يتصورها هائمة عبر هذه المدينة النائمة التي كانت كل مقاهيها مغلقة.

- ثمة مكان مفتوح، قد تكون هناك.
البار الوطني.

- لنذهب إلى هناك، قال.

كانت نيكول جالسة قبالة كأس من
الويسكي، مخسوفة الثغر، ثابتة البصر. أراد
أندريه أن يأخذها من كتفها ويضمّها. لكنها عند
أول كلمة قد يقولها ستغيّر سحنتها وتقسو. اقترب
وابتسم بحياء. تغيّر وجهها وتصلّب.

- ماذا تفعلان هنا؟

كانت ثملة والكلمات تتعثر في فمها.

- جننا لأخذك بالسيارة.

وضع يده على كتفها برقة.

- هيا، لنشرب كأساً معاً. لنتصالح.

- لا أرغب بتاتاً. سوف أعود ساعة أريد.

- سننتظرك، قال.

- لا، سأعود مشياً على الأقدام بمفردي.
أرى أنكما قد بالغتما باللحاق بي حتى هنا.

- دعيني أوصاك الآن، قالت ماشاء، من فضلك، افعلي هذا من أجل خاطري. وإلا في الحقيقة، سوف نضطر للانتظار حتى الساعة الثانية، وأنا أستيقظ باكراً غداً صباحاً.

ترددت نيكول.

- حسن، ولكن من أجلك بالتأكيد. ليس من أجل أحد سواك، قالت.

رشح الضوء عبر أجفانها. وتركتها مغمضة. كان رأسها ثقيلًا، وحزينة حتى الموت. لماذا ثملت؟ كانت تشعر بالخجل. ما إن عادت حتى رمت ملابسها أينما اتفق وانهارت. غرقت في ظلام حالك، مائع وخانق، من المازوت. وهذا الصباح، كانت تطفو فوقه بالكاد. فتحت عينيها. كان يجلس على كرسي عند أسفل سريرها ينظر إليها باسمًا.

- يا حبيبتي، لن نستمر هكذا.

عاد فجأة هو، كانت تتعرف إليه، في الماضي، في الحاضر، صورة واحدة. لكن تلك الشفرة الحديدية كانت باقية داخل صدرها. كانت شفتاها ترتعشان. هل يزداد تشنجهما، هل تستمر في عنادها، وتغرق في ظلمات الليل، أو تحاول التقاط هذه اليد الممدودة. كان يتكلم بصوت ثابت، مهدي، كانت تحب صوته. لأحد يمكنه التأكد من ذاكرته. كان يقول. ربما لم يتكلم، لكن نيته كانت صادقة عندما قال بأنه تحدث عن ذلك. لم تكن متأكدة من شيء هي الأخرى. كلفت نفسها.

- على كل حال، ربما حدثتني، لقد نسيْتُ.
ذلك يدهشني، لكن هذا ليس مستحيلاً.

- في كل الأحوال، ليس هناك أي داعٍ للغضب.

هشّت ابتسامة.

- ولا أي داعٍ، قالت.

دنا منها، وضع ذراعيه حول كتفيها، قبلها على صدغها. تعلقت به، أسندت خدّها على سترته، وشرعت تبكي. دموع ساخنة عذبة تنزلق

على خذها. أية راحة! كم هو متعب أن تحقد على شخص تحبه. راح يقول لها كلمات قديمة: "يا صغيرتي، يا حبيبتي..."

- كنت حمقاء.

- ولكن أنا طائش، كان يجدر بي أن أكلمك من جديد. كان علي أن أدرك أنك تسامين.

- آه، لأسام كثيراً. لقد بالغتُ. "أسام لأنني لأراك لوحدك". لم تعبر هذه الكلمات شفيتها، كان ذلك ليكون بمثابة توبيخ أو توصل. نهضت، ذهبت إلى غرفة الحمام.

- اسمعي - قال عندما عادت إلى الغرفة - إذا أردت الرحيل قبلي، ارحلي. ولكن إذا مارا ففتك ستحزن ماشا كثيراً. البارحة مساءً اقترحت عليّ هذا. إنما لن يكون ذلك لائقاً. أريدك أن تبقي، أضاف.

- بالتأكيد، سوف أبقى. قالت.

كانت محاصرة، مفرّغة من غضبها، عزلاء. لم يكن لديها القوة للقيام بهذا العمل

العدائي - واللامبرر له إلى حد كبير - ماالذي كان
ينتظرها في باريس؟

- انظري، أنا أيضاً بدأت أرى الوقت
طويلاً، قال. العيش كسيّاح في موسكو، هذا ليس
ممتعاً طوال الوقت.

- في كل الأحوال، كما كنت تقول، عشرة
أيام ليست بمأساة، قالت.

داخل الممر، أمسكت بذراعاه. كانا
متصالحين، لكنها كانت تحسّ بالحاجة إلى
الاطمئنان على وجودها.

.....

في عتمة السينما، كان أندريه ينظر إلى جانب وجه نيكول. منذ مشاجرتهما من يومين وهي تبدو له حزينة قليلاً. أو هل كان هو من يلقي عليها بظلال حزنه الخاص؟ لم تعد الأمور بينهما كسابق عهدها تماماً. ربما كانت نادمة لأنها وافقت على البقاء عشرة أيام إضافية في موسكو؟ أو هو من كان مُهاناً جداً أكثر مما كان يظن بسبب سوء ظنها وغضبها. لم يستطع أن يولي انتباهه لقصة هذه المرأة، قائدة الطائرة. راح يقلب في رأسه أفكاراً كئيبة. وماشا التي تعتقد بأن التقدم في السنّ يعني ازدياد المرء

غنى! الكثير من الناس يعتقدون هذا. السنوات تمنح
النبیذ شذاه، والأثاث الخشبي رونقه العتيق، والبشر
الخبرة والحكمة. كل لحظة سوف تطوقها وتثبتها
اللحظة التي تليها وتهيئ مستقبلأ أكثر كمالاً منها.
الخييات نفسها، تُسترد في النهاية. "كل لحظة
صمت، هي فرصة ثمرة ناضجة." لم يقع في هذا
الفخ قط، لكنه لم يكن يرى الحياة أيضاً على طريقة
مونتينی، كتعاقب للموت. الرضيع ليس موت
المضغة، ولا الطفل موت للرضيع. لم يرَ نيكول
تموت قط وتتبعث حية. لا بل كان يرفض فكرة
فيتزجيرالد: "الحياة تقدّم متوالٍ للانحطاط". لم يعد
جسده كشاب في العشرين، ذاكرته تضعف قليلاً،
لكنه لم يكن يحسب نفسه عاجزاً. ونيكول لم تكن
هكذا بالتأكيد. إلى عهد قريب، كان مقتنعاً كل
الاقتناع بأنهما سيكونان على حالهما في سن
الثمانين. لم يعد هذا ظنه. هذا التفاؤل الذي لا براء
منه والذي كانت تضحك له نيكول، أضحي أقل
رسوخاً من السابق. هناك تلك الأسنان التي يبصقها
في حلمه، طقم الأسنان الذي يهدده. عند الأفق،
الشيخوخة بانتظاره. هل كان يأمل على الأقل عدم

زوال حبهما أبدأ؟ كان يُخَيَّل إليه أن نيكول كلما تقدمت في السنّ سوف تزداد تعلقاً به. وهاهو شيء ما قد يكون قد تفكك بينهما. كيف له أن يفرّق في حركاتهما، في كلامهما، بين ما هو ليس سوى تكرار روتيني للماضي وما هو جديد وحيّ؟ بالنسبة له، كانت مشاعره نحو نيكول قد بقيت فتية كعهد أيامهما الأولى. ولكن هي؟ ما من كلمات يراها ليسألها ذلك.

- اختاري كتباً، قالت ماشا لنيكول. كانا كي يسليّها يبديان حماسة مزعجة قليلاً. البارحة فيلم جميل، ولكن فيلم بعد الظهر ذاك وقصة المرأة قائدة الطائرة كان مضجراً. المطالعة، بالتأكيد، وهل هناك شيء آخر يمكن القيام به؟

كانت ماشا تعمل بالترجمة، وأندريه يحاول بمساعدة قاموس فكّ رموز صحيفة البرافدا. تأملت المجموعة المرصوفة فوق الرف. روايات، قصص، مذكّرات، حكايا: كانت قد قرأتها كلها، أو تكاد. عدا عن النصوص التي شرحتها في الصف، ماذا تتذكر؟ "مانون ليسكو" التي درستها جملة جملة في سنة تخرجها، لم تعد

تذكر منها بدقة أي حدث. غير أن هذه الصفحات التي لم تكن قادرة على استذكارها، كان يعترها شعور بالكسل من جرّاء التفكير بإعادة قراءتها. إعادة القراءة تضجرها، فالمرء يتذكر تدريجياً، أو على الأقل يُهياً له ذلك. نحرم من متعة القراءة. هذا التآزر الحر مع الكاتب هو بمثابة إبداع تقريباً. كانت تحتفظ برغبة الاطلاع على مؤلفات عصرها، وتبقى على اطلاع على كل ما هو جديد. لكن هذه المؤلفات القديمة التي كوّنتها كما هي الآن وما تزال تفعل، ماذا يمكن أن تقدّم لها؟

- تحتارين بالاختيار؟ قال أندريه.

- شيء محير.

تناولت كتاباً لبروست¹². مع بروس، كان الأمر مختلفاً، إنها تحفظ عباراته عن ظهر قلبها، تنتظرها وتستعيدّها مثلما يستعيد الكاتب سوناتة فانتوي¹³ الصغيرة بسعادة. أما اليوم،

¹² بروس: الكاتب الفرنسي الشهير مارسيل بروس صاحب رواية "في البحث عن الزمن الضائع". م.

¹³ سوناتة فانتوي: مقطوعة موسيقية خيالية للكمان والبيانو ذكرت عدة مرات في سياق رواية بروس: في (البحث عن الزمن الضائع). وتمثل بالنسبة للكاتب المثالية الجمالية التي تنشط قوى الذاكرة وتجعل الإنسان الذي يسمعا واعياً أكثر لذاته. م.

فكان يصعب عليها التركيز. كانت تفكر: لم يعد الأمر مماثلاً. نظرت إلى أندريه. الحضور، ماهو؟ ذلك التاريخ الطويل الممتد منتهياً وراءها، مألوفاً جداً ومنسياً جداً، مثل النصوص الحبيسة بين هذه الصفحات. في باريس، حتى وهو بعيد عنها عدة كيلومترات، لا بل في الأوقات التي كانت تراه فيها مبتعداً، وهي منحنية على النافذة، كان حاضراً في قلبها مثل أكثر الأشياء بدهاة. كان خياله يتضاءل ويتوارى عند زاوية الشارع، راسماً في كل خطوة طريق عودته. هذا المكان الخالي ظاهرياً، هو حقل قوة يعيدها على نحو جارف إلى ذاتها وإلى مكانها الطبيعي أيضاً. كان هذا اليقين أقوى بكثير من جسد من لحم ودم. اليوم، أندريه هنا، بذاته، في تناول يدها، لكن كأن هناك طبقة عازلة بينهما، طبقة لامرئية، غير محسوسة، طبقة من الصمت. هل كان أندريه يعي ذلك؟ لا، دون شك. كان ليجيب: "ولكن بلى، الأمر شبيه بما مضى، ما الذي تغيّر؟". حدثت مشاجرات في

حياتهما إنما لأسباب جدية. عندما كان لأحدهما مغامرة، فيما يتعلق بتعليم فيليب، كانا يقومان بتصفية حساباتهما بالعنف، إنما سريعاً وبشكل نهائي. هذه المرة، كان الأمر مثل زوبعة دخانية، دخان بلا نار، وبسبب عدم تماسكها نفسه لم تتبدد كلياً. يجدر القول أيضاً أن مصالحتهما في الماضي في السرير كانت جارفة، في الرغبة والهيّاج والمتعة تحترق الملامات اللاجدوى منها ويستعيد أحدهما الآخر وجهاً لوجه، جديدين وفرحين. اليوم أضحي هذا الملاذ يخذلها. والحالة هذه كانت نيكول تماحك. لقد كانت مسؤولة عن خلافهما في جزء غير يسير. ظنت بأنه يكذب (صحيح، لماذا كان يكذب عليها من قبل؟ هل كان ذلك في سبيل أشياء صغيرة؟)، كان هذا خطأ. كان يجدر به أن يكلمها مرة ثانية بدل اعتبار المسألة قد سوّيت في دقيقتين. هي شديدة الارتياب، لكن هو مقصّر. واستمر على ذلك دون أن يعبا بماذا كان يدور في خلد نيكول. هل تيبس؟ تحت وطأة الغضب فكرت عنه بأشياء كثيرة غير صحيحة.

شيخوخي، لا، يعيش عيشة خاملة، لا. صار أقل إحساساً ربما. حتماً نحن نضعف: الكثير من الحروب والمذابح والكوارث والمصائب والموتى. أنا نفسي، عندما ستموت مانون، هل سأبكي؟ "لن يكون هناك أحد ليناديني يا طفلي الصغيرة"، كانت تقول بحزن. ولكن هذا تفكير أناني. هل كانت ستحزن لعدم رؤية مانون؟ بقيت هشة الإحساس من خلال أندريه وفيليب. ماذا عن الآخرين؟ حتى تجاه فيليب وأندريه لم تكن تشعر في هذه اللحظة بأي اندفاع.

زوجان يستمران لأنهما بدأا. هل هذا هو المستقبل الذي ينتظرهما؟ من أجل الصداقة والمودة، وليس من أجل أي سبب حقيقي للعيش معاً. هل سيكون الأمر على هذا الشكل؟ كان هناك أسباب حقيقية في البداية. هي التي كانت تثور ما إن يتناول عليها أي صبي بأقل استعلاء. كان قد أغلبها بنوع من السذاجة التي لم تصادفها لدى أحد، أمام مظهره المرتاع تصبح عزلاء، عندما كان يتنهد ويقول: "أنت مخطئة تماماً!".

بسبب رعاية أمها الفائقة وإهمال والدها، كان هناك ذلك الجرح في داخلها، أنها امرأة. كانت فكرة التمدد تحت رجل في يوم من الأيام تثير ثائرتها. بفضل رقة أندريه وحنانه صالحها مع جنسها. تلقت المتعة بكل سرور. حتى أنها بعد بضع سنوات، تمتت طفلاً وغمرتها الأمومة. نعم، هو حقاً من كانت تحتاج إليه وليس غيره. وهو، لماذا أحبها مع أنها كانت بغیضة بسبب عدائيتها عموماً؟ قد تكون القسوة والصرامة الأموميتان اللتان تثقلان عليه ضروريتان في الوقت نفسه، وقد عثر عليهما لدى نيكول.

ساعدته إلى حد ما أن يغدو راشداً. على كل حال، لقد كانت دائماً تشعر بأن أية امرأة أخرى لم تكن لتلائمه أفضل منها. هل كانت مخطئة؟ من ناحيتها، هل كانت سترضى أكثر مع رجل آخر؟ أسئلة لا طائل منها. المشكلة الوحيدة هي أن تعرف ما الذي بقي داخلهما اليوم؟ لم تكن تعرف ذلك.

كانت ماشا منشغلة بعد تلك الظهيرة. عهدت بنيكول وأندريه لسائق أجرة أعطته

تعليمات مفصلة. نزلا من السيارة في ضاحية
جاء إليها قبل ثلاث سنوات عند مداخل موسكو.
قرية حقيقية. سارا في شارع تحفه منازل
الفلاحين الخشبية القديمة.

- لا تمشِ بهذه السرعة، أريد التقاط صور،
قالت نيكول.

قررت بغتة أنه كان من المؤسف عدم إحضار
أي صورة عن رحلتها، واستعارت آلة تصوير يوري.
إن صح القول، لم تلتقط صوراً قط في حياتها. نظر
إليها تصوب عدستها ناحية منزل خشبي. "ذلك لأنها
تسام معي"، ففكر. في سيارة الأجرة لم يجدا شيئاً
ليقولاه، لكنهما لم يشعرأ بالسوء إطلاقاً وهما معاً، هذا
ما كان محزناً أكثر. عساه أصبح مضجراً، حتى أثناء
عطلاتهما في فيلنوف، ما كانا يلتقيان قط أكثر من هنا.
كانت مشبعة من حضوره. ربما كانت تسام، هي أيضاً
لم تكن مسلية كثيراً. صوّرت منزلاً ثانياً وثالثاً. كان
هناك أناس يثرثرون جالسين في الشمس على عتبات
بيوتهم، كانوا ينظرون إليها باستياء، قال أحدهم شيئاً لم
يفهمه أندريه لكنه يبدو غير مستحب.

- أعتقد أنهم لا يريدون أن تلتقطي هذه الصور، قال.

- لماذا؟

- هذه المنازل الخشبية جميلة، لكنهم يجدونها بائسة ويرتابون فيك، كأجنبية سافلة، لأنها تريد نقل صور بؤسهم.

- حسن، سأتوقف، قالت.

حلّ الصمت بينهما.

في الحقيقة، أخطأ بتمديد هذه الإقامة. حتى بالنسبة إلى ماشا، إلى ماذا كان يقربه ذلك؟ في كل الأحوال، كنا سيفترقان لوقت طويل جداً: عامان، ثلاثة أعوام زيادة؟ هل كنا يرغبان حقاً بلقاء قريب؟ حين أراها باريس في العام 1960، واكتشف معها الاتحاد السوفييتي في العام 1963، كانت أياماً كالعيد. هذه المرة، لم يجد هذا المرح، فقط في البداية. كان يحب ماشا كثيراً وهي تبادله الحب، لكنهما كانا يريان العالم بطريقة شديدة الاختلاف، لأحد منهما له مكانه

في حياة الآخر فعلياً. هذا الإحساس الشعري الذي فتنه لدى وصوله، تبدد شيئاً فشيئاً. كان من الحماسة معاكسة نيكول دون سبب مقبول، بسبب جملتين تبادلاها هذراً: "ليس لديك شيء يذكر تفعلينه في باريس - لاشيء".

- في الواقع، من الحماسة كان تمديد هذه الإقامة، قال.

- إذا كان هذا لايسرك فعلاً، هذا غياب، قالت.

- هل لأنك نادمة؟

- نادمة إذا كنت أنت نادماً.

إذاً، هاهما يراوحيان في مكانيهما. شيء ما علق في حوارهما، كان كل واحد يفهم الآخر بالعكس إلى حد ما. ألن ينتهي بهما الأمر إلى الخروج من هذا؟ لماذا اليوم وليس البارحة؟ لم يكن هناك سبب.

مرّاً أمام رواق كنيسة، صوّرته نيكول. على بعد قليل منها عند أعلى الهضبة ترتفع كنيسة أخرى بهندستها المعمارية المعقدة. تطل

على نهر موسكوف، ومن ورائها يمكن رؤية سهل فسيح وموسكو في البعيد. جلسا فوق العشب وتأملا المنظر.

"هانحن للمرة الأولى نكون وحدنا، لانجد شيئاً نقوله لبعضنا البعض، حتى لارغبة لدينا في التحدث"، فكّرت نيكول بمرارة. ظنت بأن أندريه سيتسلى بالتقاط صور لموسكو معها، كانت البطاقات البريدية سيئة جداً. لم يبالٍ بذلك، لابل بدا الأمر مزعجاً بالنسبة إليه. تمددت على العشب، أغمضت عينيها، وفجأة غدا عمرها عشر سنوات وهي مستلقية فوق مرج، فاحت بالقرب من خدّها رائحة التراب والعشب. لماذا ذكرى الطفولة تحرك القلب كثيراً؟ لأن الزمن يتمدد إلى اللانهاية، وتتلاشى الأمسية في الأقصاء البعيدة، والمستقبل له الأبدية. "أعرف ما الذي أفقده في هذا البلد"، فكّرت. باستثناء ليلة فلاديمير لاشيء أثر بها بعمق، إذ لاشيء أيقظ في داخلها أصداء. اللحظات التي حرّكت مشاعرها في حياتها، كانت على الدوام لحظات تستدعي شيئاً مختلفاً عن اللحظة نفسها. كانت تتراءى لها مثل تذكّار،

هاجس، تجسيد حلم، لوحة دبت فيها الحياة، صورة واقعية بذاتها، خفية لا يمكن بلوغها. ليس فقط لأنه لم يكن لها جذور في الإتحاد السوفييتي، فهي لم تحبها عن بعد كما أحببت إيطاليا أو اليونان. لهذا، حتى الأشياء الجميلة هنا، لم تكن أكثر مما هي عليه. بوسعها أن تنال إعجابها، لكنها لم تسحرها. هل بإمكان أندريه أن يفهمني؟ تساءلت. قالت لنفسها بكآبة إن هذا لا يهمها. ولكن مع ذلك، أن يكونا وحيدين كما تمننت بشدة دون حتى أن يستغلا ذلك، بدا الأمر محزناً.

- أدركت للتو لماذا لا شيء في الإتحاد السوفييتي يحرك في الكثير، قالت.

- لماذا؟ قال.

كان حضوره قوياً جداً وشديد الاهتمام - مع كل الناس، ومعها زيادة - بحيث أنها اندهشت من نفسها لتردها بالحديث إليه. كان الأمر يسيراً، في دفاء هذه النظرة، لو شرحت بصوت مسموع ما قالت له لنفسها بهمس.

- بالمجمل، هذه الرحلة خيّبت أملنا نحن
الاثنين قليلاً، قال.

- ليس أنت.

- بطريقة مختلفة، نعم، الكثير من الأشياء
فانتني. لم أعد متحمساً كما كنت لدى وصولي.
سأكون سعيداً بالعودة إلى باريس.

نظر إليها بشيء من الملامة.

- على الرغم من أنني لست ضجراً، أنا
لا أضجر أبداً حين أكون معك.

- وأنا كذلك معك.

- ولكن صرخت في وجهي، أنا ضجرة!

كان في صوتها حزن حقيقي. صرخت
كلماتها أثناء الغضب وقد نسيتهما. كان يبدو أنه أهين
بعمق من هذه الكلمات. تردّدت ثم قالت:

- في الحقيقة، أنا أحب ماشا كثيراً، لكن
الأمر مختلف حين أراك معها أو من دونها. الشيء

الذي أضجرتني هو ألا أستطيع أن أكون معك وحدي
أبداً. أنت، كان الأمر سياناً عندك، أما أنا فلا،
أضافت بشيء من المرارة.

- ولكن، مرّت أوقات كثيرة كنا فيها بمفردنا.

- ليس كثيراً، وكنت منهمكاً بقواعد
اللغة الروسية.

- لم يكن عليكِ سوى التحدث إلي.

- لم تكن ترغب بذلك.

- بالطبع أرغب! أرغب دائماً بالتحدث إليك.

أمعن في التفكير.

- هذا مضحك! وأنا من كنت أعتقد بأننا

نرى بعضنا أكثر بكثير مما نفعل في باريس.

- ولكن دائماً مع ماشا.

- كان يبدو عليكِ أنك على وئام تام معها.

لم يخطر على بالي أنها تنقل عليكِ.

- أنا على وئام معها، ولكن حين يتعلق الأمر بطرف ثالث بيننا، فالأمر ليس مشابهاً.

هشّ ابتسامة غريبة.

- هذا ما أفكر به مراراً عندما تصطحبين فيليب معنا في نهايات الأسبوع.

بقيت مرتبكة. صحيح، كانت في أغلب الأحيان تطلب من فيليب مرافقتهما ويبدو لها الأمر طبيعياً جداً حينذاك.

- الأمر مختلف جداً.

- لأنه ابني؟ مع هذا، هو طرف ثالث بيننا.

- لن يكون ذلك بعد الآن.

- هذا يحزنك كثيراً!

هل سيتشاجران من جديد؟

- لا يوجد أم تحب أن يتزوج ابنها. لكن لا تظن أنني منزعة من ذلك.

صمتاً. لا، لن يقعا في الصمت من جديد.

- لماذا لم تقل لي قط إن وجود فيليب
أحياناً يضايقك؟

- لطالما عاتبتي لأنني استثنائي! كما
أنني ماذا كنت سأكسب من حرمانك فيليب إذا
كنت في كل الأحوال لا أكفيك.

- كيف هذا؟ أنت لا تكفيني؟

- آه، أنت سعيدة لأنني في حياتك، شرط
أن يكون هناك شيء آخر: ابنك، أصدقاء،
باريس...

- هذه حماقة ما تقوله هنا، قالت مندهشة.
أنت أيضاً تحتاج إلى شيء آخر غيري.

- بإمكانني التخلي عن كل شيء إذا كنتِ معي.
معك وحدك في الريف، سأكون سعيداً كل السعادة. قلتِ
لي ذات يوم إنك ستموتين من الضجر هناك.

هل كان جدياً أكثر مما كانت تظن، التقاعد
في فيلنوف؟

- أنت تفضّل الريف وأنا أفضل باريس،
لأن الإنسان يحب أماكن طفولته.

- ليس هذا هو السبب الحقيقي. لأنني لا أكفيك،
وعندما قلت لك هذا في ذلك اليوم، لم تعترضني حتى.

تذكرت أنها كانت غاضبة، كان يصعب
عليها دائماً وهي متوترة الأعصاب ومتشنجة أن
تقتلع الكلمات اللازمة.

- كنت غاضبة. لم أكن سأقول لك عبارات
حب. لكن لو كنت تظن بأنني لا أتعلق بك بقدر ما
تتعلق بي، فأنت أحمق فعلاً.

ابتسمت بحنان. كان ما قالتها صحيحاً:
ماشاً لم تتركهما قط.

- خلاصة القول – قال - حصل سوء تفاهم.

- نعم، كنت تظن بأنني أسأم معك في حين
أنني كنت أسأم بسببك: هذا أكثر إطراء ممالة.

- وأنا كنت سعيداً لاستحواذك كلياً، وأنت لم
تدركي ذلك.

- ولكن، لماذا أساء أحدنا فهم الآخر إلى هذه الدرجة؟ سألت.

- خيبة أملنا جعلتنا في مزاج سيء. فضلاً عن أننا لم نرغب بالبوح بذلك.

- علينا دائماً البوح بكل شيء، لأنفسنا وللآخرين، قالت نيكول.

- هل تبوحين لي بكل شيء دائماً؟
ترددت.

- تقريباً. وأنت؟

- تقريباً.

ضحكا معاً. لماذا كانا غير قادرين على العيش معاً في هذه الأيام الأخيرة؟ كان يبدو كل شيء من جديد مألوفاً جداً، سهلاً جداً.

- هناك شيء لم أقله لك وهو مهم – أردفت - منذ وصولي إلى موسكو، حدثت معي ضربة شيخوخة.

وعيتُ أنه بقي لي وقت قصير جداً لأعيشه. هذا يجعل أقل معاكسة غير محتملة. أنت لاتشعر بسنّك، أنا بلى.

- آه، أشعر به - قال - لا بل أفكر فيه مراراً.

- صحيح؟ لكنك لا تتحدث عن ذلك أبداً.

- حتى لا أحزنك. وأنت لا تتحدثين عن ذلك أيضاً.

للحظة لزمنا الصمت. لكنه لم يعد نفس الصمت. مجرد استراحة من هذا الحديث الذي انعقد أخيراً والذي لن يتوقف بعد الآن.

- هل نعود؟

- لنعد. أمسك بذراعها.

لحسن الحظ أننا تمكنا من التحدّث إلى بعضنا البعض - قالت - سوء التفاهم يصنع كرة ثلج ينتهي بها الأمر إلى إفساد كل ما بين الأزواج الذين لا يعرفون استخدام الكلمات.

- خفت أن يكون قد ضاع شيء بيننا.

- أنا أيضاً.

- ولكن في قرارة نفسي كان ذلك مستحيلاً، كنا سنتوصل إلى توضيح أفكارنا لا محالة.

- نعم، كان هذا حتمياً. في المرة القادمة، لن أخاف بعد الآن.

شدّ على ذراعها.

- لن يكون هناك مرة ثانية.

ربما يكون هناك مرة ثانية لكن لن تكون ذات أهمية. لن يتوه الواحد بعيداً عن الآخر. لم يقل لها تماماً كل ما مرّ بخلده خلال تلك الأيام. هي أيضاً، قد تكون قد احتفظت بأشياء صغيرة في سرّها. كان هذا دون أهمية أيضاً. لقد استعدادا بعضهما من جديد. سوف يطرح الأسئلة وهي ستجيب.

- لماذا شعرت بأنك عجوز؟

.....

في باريس، كانت تآلف وجوهاً كثيرة، لكنهم لا يعنون لها شيئاً. الأشجار في قمة فتنتها، الحمائم تهدل في سواقي حبوب الطلع الزاغب والراكد فوق الأرصفة. كانت النديفات البيضاء تتطاير حولها، وبعد ظهيرة ذلك اليوم في المكتبة، عندما كانت تتطاير هي بنفس الطريقة، قالت وداعاً لجسدها.

كانت تنبعث من الطريق رائحة الخصرة المنعشة وتنجرف فوق نهر موسكوفاً تشكيلة من جذوع الأشجار، بدأت مغامرة الاكتشاف تثير حماسه وتخيفه. أن ينجح أو أن يصبح شخصاً مهماً، لم يبال بذلك قط. لو لم تنذر أمه نفسها بتصميم كي يتابع دراسته لاكتفى حقيقة بأصل والديه: معلمان تحت شمس بروفانس. كان يخيل إليه بأن حقيقة وجوده ونفسه لا تنتمي إليه. إنها متناثرة بشكل غامض عبر الأرض كلها، ولمعرفتها كان يجب مساءلة الأزمنة والأماكن، لهذا السبب كان يحب التاريخ والرحلات. لقد كانت مقارنة بلد مجهول طافح بوفرتة الحية وعيش كل ما يمكنه أن يعرف عنه، كان ذلك يشعره بالدوار.

